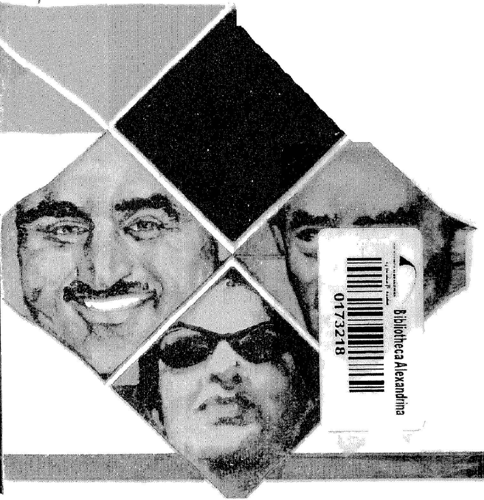
كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

كلمات مصرية

حلمي سلام



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ ، سبعة خطوط .

KITAB ALHILAL

العدد ٤٣٩ ـ ذو القعدة ١٤٠٧ ـ يولية ١٩٨٧

NO — 439 — July 1987

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج م . ع نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنانة :
سميحـــة حسنيـــن

اهداءات ٢٠٠١

المهندس/ محمد عبد السلام العمرى

الإسكندرية

كلمات مصرية

بقلم
حلمى سلام

دار الهلال

هذه الكلمات

رأت هذه الكلمات النور ، لاول مرة ، على صفحات مجلة « الفجر » ألتي كان لي ـ بمعاونة كتيبة صحفية مصرية شابة ـ شرف تأسيسها في « الدوحة » عاصمة دولة قطر ، على مدى سنتين هما كل عمرها الذى بدأ من اول يناير سنة ١٩٧٤ .. ولم يمتد الى أكثر من آخر ديسمبر سنة ١٩٧٦ ، بعد أن هبت عليها ـ من الجهات الاربع ـ رياح المتاعب ، فتوقفت عن الصدور . اذ كانت قد جاءت الى الساحة الصحفية العربية وقد جعلت أول مادة في دستورها أن تكون خالصة للعرب جميعا .. تقول كلمة الحق لوجه الحق وحده ، لاتنشد رضاء زيد .. ولا تحاذر غضب عبيد ، فكانت النتيجة انها أغضبت زيدا .. وعبيدا معا . فصودرت في العراق مرات . ومنعت نهائيا ، من دخول سوريا . وصودرت في الكويت مرات . وصودرت في مصر مرة أو مرتين . ومنعت مرات من التوزيع داخل قطر نفسها ، الا بعد أن نزع منها بعض صفحاتها . !!

لكن « الفجر » لم تعبأ بهذه المصادرات جميعا ، ومضت في طريقها لا تنظر الى يمين .. ولا الى شمال .. فقط ، كانت تنظر الى أمام .. وأمامها كان مكتوبا بالخط العريض : كلمة الحق لم تدع لي صديقا .

ولقد كانت آخر رياح المتاعب التى هبت على « الفجر »

عندما طلبت منى السلطات القطرية مغادرة « الدوحة » خلال ثمان واربعين ساعة .. بسبب مقال كتبته تعليقا على « خبر » انفردت بنشره صحيفة « السياسة » الكويتية . ومؤداه « أن العدة تعد فى « القاهرة » لاعلان السيدة « جيهان السادات » نائبة لرئيس الجمهورية » !! ..

وغضب أصحاب « الفجر » مما قررته سلطات قطر فى شأنى . رأوا فيه تعديا على كرامتهم الشخصية من ناحية .. وتعديا ، من ناحية أخرى ، على النهج الذى اختاروه ، بانفسهم لانفسهم ، ولم يكرههم عليه أحد .. فطلبوا من السلطات القطرية — كتابة — أن تعيد النظر فيما قررته تجاهى ، والا .. فانهم سوف يغلقون « الفجر » .

كان تقدير أصحاب « الفجر » أن صحيفتهم ، بالنجاح الكبير .. والسريع .. الذى حققته فى زمن قياسى ، بين شعوب المنطقة .. سوف يجعلها اعز على السلطات القطرية من أن تكون سببا فى قصف عمرها . لكن أصحاب « الفجر » نسوا أن ذلك النجاح الكبير .. والسريع .. الذى حققته صحيفتهم ، باستقلالها الحقيقى عن جميع الذين يمسكون بأيديهم ذهب المعز .. وسيفه ، بمن فيهم حكومة قطر نفسها ، لا يمكن الا أن يكون هو نفسه السبب الاول .. والاخير ايضا .. لمحاولة وأدها .

ولقد كان ..

رفضت السلطات القطرية الاستجابة لطلب أصحاب « الفجر » . فقرروا ، من ناحيتهم ، أنها النهاية ... اغلقوها . « واذا الموءودة سئلت : بأى ذنب قتلت ؟ »

.. فلن تجد المسكينة ماتستطيع أن تجيب به سوى حولها : حرصت ان اقول « كلمة الحق » لوجه الحق وحده .. فأوردني « حرصي » موارد الهلاك .!!

***

على صفحات هذه المجلة التى أوجزت لك ، فيما تقدم من سطور ، قصة حياتها وموتها، وعلى مدى سنتين هما كل عمرها .. مضيت أكتب هذه الكلمات . كنت أكتبها ، أسبوعيا ، تحت عناوين مختلفة .. وايضا بتوقيعات مختلفة .. فبعضها كتبته تحت عنوان : « شعاع الفجر » ووقعته باسمي الصريح . وبعضها الآخر كتبته تحت عنوان : « مجرد ملحوظة » ووقعته بتوقيع : « الملاح الاسمر » . وبعضها الاخير كتبته تحت عنوان : « رأى» .. ووقعته مرات باسمي .. وتركته مرات بلا توقيع . هذا الى جانب سلسلة مقالات عن أسرار ثورة ٢٣ يوليو تحت عنوان : « رحلة .. فى أسرار الامس » .

وحين عدت الى قراءة ماكتبته من كلمات ، بعد عشر سنوات من رحيل « الفجر » عن عالم الصحافة العربية ، وجدتها ـ لدهشتي ـ وكأنها كتبت الساعة ، وليس من عشر سنوات مضت . فالمسرح العربى لايزال هو نفس المسرح .. والابطال لايزالون هم نفس الابطال .. مع تغييرات طفيفة فى شخصيتين أو ثلاث : أنور السادات فى مصر . وسليمان فرنجية فى لبنان . والشاه محمد رضا بهلوى فى ايران . لكن الرواية « المأساة » التى كانت تدور ، من عشر سنوات ، فوق خشبة هذا المسرح ، لا تزال هى هى دون ما تغيير ولا تبديل .. اللهم الا أن يكون مرور الايام قد زادها سخونة وحدة .. وزادها ،

بالتالى ، قدرة على تمزيق القلب وسفح الدموع .!!

وبينما انا ماض فى قراءة هذه الكلمات .. اذا بى استشعر نحوها قدرا من الاعزاز لها .. والاعتزاز بها . ليس بوسعى أن اصفهما . ولم يكن مصدر هذا الاعزاز .. وذلك الاعتزاز .. هو اننى صاحبها . وانما كان مصدره انها كشفت لى — فى غير مواربة — عن ان قوة ما ، فى الغربة ؛ لم يكن فى مقدورها ان تحملنى على أن اغير جلدى او ان تجعلنى أنسى «مصريتى» كماينساها كثيرون، للأسف الشديد ، عند الباب الخارجى لمطار القاهرة .!! بل لقد احتفظت بمصريتى معى .. فى دمى .. وتحت جلدى . وانه لصحيح أن احتفاظى بمصريتى .. فى دمى .. وتحت جلدى .. قد جر على متاعب كثيرة . الا أننى — والحق اقول — كنت جد سعيد بهذه المتاعب . ولئن كان «شوقى» قد قالها من منفاه فى الاندلس :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه
نازعتنى اليه فى الخلد نفسى

فان « قطر » لم يكن بهاخلد .. ولا شبه خلد .. يمكن أن يشغلنى — ولو للحظة — عن « مصر » وما يحدث فيها .. ومايحدث لها . ومن هنا ، جرى قلمى بكلمات كثيرة عنها : عن زعامتها وريادتها .. عن قادتها وزعمائها .. عن صحافتها وكتابها .. عن فنونها وفنانيها .

***

وانى لاحسب ان كثيرين قد قرأوا هذه الكلمات ، من قبل ، فى مجلة « الفجر » . ولكن .. اكثر منهم ، ولاشك ، الذين لم يتح لهم أن يلتقوا بها .. ولا أن

يقراوها .. ومن هنا جاء حرصي على أن أقدمها لهم بين دفتي هذا الكتاب ، لكي ماتكون شاهدا .. ودليلا بين ايديهم .. على انه اذا كان ثمة كتاب يتغيرون .. ويتلونون .. ويتمتعون ببراعة « الحرباء » في تبديل جلودهم .. فان ثمة كتابا آخرين استطاعوا ــ تحت اصعب الظروف .. وايضا تحت أقسى الجراح ــ أن يحتفظوا لانفسهم باتزانهم .. وبتوازنهم .. وبصورتهم التي عرفهم الناس عليها .. فلم يتغيروا ، ولم يتلونوا ــ ولم يبدلوا ــ ببراعة الحرباء ــ جلودهم .. ولم يملوا من ان يرددوا للناس .. ولانفسهم ، في كل آن .. وفي كل مكان :

بلادي وان جارت على عزيزة
واهلي وان ضنوا على كرام

حرب أكتوبر ...
والابرة والمئذنة

مهما جحد الجاحدون فضل « حرب اكتوبر » .. ومهما انكر المنكرون قدرها ، ومهما تطاول المتطاولون عليها . فلسوف تبقى هذه الحرب ــ على الرغم من ذلك كله ــ علامة مضيئة فى تاريخ الامة العربية ، وفى تاريخ الانسان العربى ، وفى تاريخ الارادة العربية .

فلقد استنقذت « حرب اكتوبر » ، الشرف العربى .. والكرامة العربية .. من بئر عميقة كانا قد هويا اليها . ولم يكن لاستنقاذهما من هذه البئر العميقة ــ فى نظر الكثيرين .. ان لم يكن فى نظر الجميع ــ من أمل . كذلك لم يكن لاخراجهما منها ــ فى نظر الجميع ــ من سبيل . فلما تحقق الامل ، ووجدت السبيل .. نسى الحاقدون ، والمنكرون ، الحرب نفسها .. وراحوا يتلمسون « ثغرة » وقعت فيها ، واعتبروا أن هذه «الثغرة» هي النتيجة التى انتهت تلك الحرب اليها .!! أما عبور القناة ، بعد أن كان قد استقر فى يقين الجميع انها لن تعبر ، فلا شيء . واما سقوط « خط بارليف المنيع » ، بعد أن كان قد استقر فى يقين الجميع أنه لن يسقط ، فلا شيء . واما انهيار أسطورة جيش اسرائيل القوى ، بعد أن كان قد استقر فى يقين الجميع انه جيش لايهزم ، فلا شيء .. وتلك هى طبيعة الحاقدين ، انهم يرون « الأبرة » ويعجزون عن رؤية « المئذنة » . الا أن الحقد

مهما اشتعل .. ومهما كبر حجمه .. وكبر ، وكبر ، فانه لن يستطيع أن يحول « المئذنة » الى ابرة .. هذه هي قوانين الحقيقة . وهي اقوى من الحقد ، واعظم .. واذا كان الحقد أسود ، فان الحقيقة بيضاء .. وما كان للسواد أن يحجب شيئا ابيض .

والحقيقة الناصعة البياض هنا ، هي انه – في ٦ اكتوبر سنة ٧٣ – انتفضت ارادة الرجال ، وعظمة الرجال وشجاعة الرجال .. أنتفضت لتطهر عرضا ، وتستنقذ شرفا ، وتتخلص كرامة من وحل اسود كان قد لطخها .

ولم يكن العرض ، والشرف ، والكرامة .. عرض فرد ، ولا شرف فرد ، ولا كرامة فرد .. وانما كان عرض امة ، وشرف امه ، وكرامة أمة .. شاءت الاقدار أن تظن بقادتها الظنون ، وأن تظن بمقاتليها الظنون .. بعد أن رأى العالم ، وسمع ، انهم فقدوا كل شيء .. كل شيء .. في ست ساعات ، وليس أكثر .!!

في ضوء تلك النهاية الاليمة التي كنا قد انتهينا اليها في حرب ٦٧ – كان ينبغي أن تقيم « حرب أكتوبر » . لكن الحقد ، كما ذكرت ، أسود . والسواد عمى . وماكان باستطاعة أعمى أن يرى الراية العربية ، وقد غرسها المقاتل العربي غرسا في قلب « بارليف » .. ولانه أعمى ، فانه لم يستطع أن يرى من تلك الحرب شيئا غير «الثغرة» .. ولانه أعمى فانه لم يستطع أن يقرأ التاريخ ، ولا أن يعرف شيئا عن هزيمة الحلفاء ، في أوائل الحرب العالمية الثانية ، في « دنكرك » . ولا أن يعرف شيئا عن تراجع الحلفاء حتى العلمين . ولا أن يعرف شيئا عن تراجع الروس ، في نفس الحرب .. وأمام جحافل الالمان ، حتى

أبواب « موسكو » .. كل الذى استطاع ان يعرفه هو « الثغرة » فى حرب اكتوبر .. وكان « ثغرات » خطيرة .. خطيرة ، قبلها ، لم تحدث . وكان « ثغرات » خطيرة، بعدها ، لن تحدث .

***

تحية لذلك اليوم المجيد من أيام الامة العربية .. تحية لكل قائد ، ولكل مقاتل ، ولكل شهيد .. أسهم بارادته ، أو بشجاعته ، او بدمائه .. فى اضافة ذلك اليوم المجيد الى سجل هذه الامة .

السادات ..
أذكى من أن يفعلها

الذين يتابعون اعمال السيدة جيهان السادات فى مجالات الخير المتعددة ، لا يملكون الا ان يهتفوا لها ، ومن اعماق قلوبهم ، تحية واعجابا .

ومن المؤكد ان هؤلاء الذين يهتفون ، ومن اعماق قلوبهم ، تحية لما تقدمه السيدة جيهان السادات فى مجالات الخير من عطاء ، قد تولاهم جزع شديد لما نشرته جريدة « السياسة » الكويتية ــ نقلا عن مراسلها فى القاهرة ــ من « أن العدة تعد هناك لاعلان السيدة جيهان نائبة لرئيس الجمهورية .. لدى التجديد الثانى للرئيس السادات فى رئاسة الجمهورية » !![1]

وهؤلاء الذين تولاهم الجزع لدى قراءتهم لهذا النبأ الذى نشرته الصحيفة الكويتية ــ وهى صحيفة صديقة لمصر .. وللرئيس السادات شخصيا ــ انما اصابهم ما اصابهم لانهم رأوا فى ذلك النبأ الذى لم تكذبه أجهزة الاعلام فى مصر ــ رأوا فيه انتصارا لاولئك الذين كانوا ــ ومايزالون ــ حريصين على تشويه ماتقدمه السيدة « جيهان السادات » لمجالات الخير من عطاء ، وعلى تصويره بانه « ليس غاية فى ذاته .. وانما هو وسيلة

---

(1) بسببه هذا المقال صودرت (الفجر) ، فى احدى المرات التى صادرتها فيها « القاهرة » وأصدرت (السلطات القطرية اوامرها الى (الكاتب) بمغادرة (الدوحة) خلال ثمان واربعين ساعة .. وكان ذلك بناء على رغبة شخصية ابداها الرئيس الراحل (أنور السادات) !!

ى عايه » .. وان هذه الغاية انما هى الطموح الى اعلى منصب فى الدولة » !!

واذا كان هذا سببا من أسباب ذلك الجـزع الذى تولى أولئك الذين كانوا ـ ومايزالون ـ يهتفون ، ومن أعماقهم ، لعطاء السيدة « جيهان السادات » فى مجالات الخير .. فانه ، وبالتأكيد ، ليس كل اسبابه .. ولعله ، أيضا ، ليس اهم أسبابه . وانما اهم اسباب هذا الجزع هو أن الذين جزعوا يعرفون « بحر السياسة » جيدا .. يعرفون انه « بحر » ترقد فى أعماقه كل « الاســـــماك المتوحشة » .. ويعرفون ايضا انه « بحر » كل شىء فيه جائز .. فليس ثمة قانون هناك ، ولا دستور ، ولا أخلاق ، ولا ضوابط . فالكذب فى هذا « البحـــر » جائز .. والخداع جائز .. والتضليل جائز .. ولا شىء يهم . واذا كان بعض الرجال ، او كثير من الرجال .. تحملهـــم طبائعهم ، او تكرههم اقدارهم ، على الخوض فى هـــذا « البحر » ، وعلى التعامل مع « أسماكه المتوحشة » .. ومع أكاذيبه ، واضاليله ، ونفاقه .. فما أحرى النســـاء أن يقفن بعيدا .. بعيدا جدا .. منه ، حتى لا تتحـــرك نحوهن « أسماكه المتوحشة » لتنهش لحومهن بغير رحمة، ولا شفقة .. اذ ليس أسهل ، بالنسبة لهذه « الاسماك المتوحشة » ـ وربما ولا الذ أيضا ـ من نهش لحوم النساء .. ولعل مايحدث ـ الان ـ لأنديرا غاندى فى الهند .. ومايحدث لازبيللا بيرون فى الارجنتين .. قاطعـــا فيه الدلالة على انه لا اعتبار لاحد ـ مهما كبر قدره .. وتعاظم تاريخه ـ لدى هذه « الاسماك المتوحشة » .. لا اعتبار لنهرو ـ والد « أنديرا » .. وصانع استقلال الهند ـ

ولا اعتبار لجوان بيرون ــ زوج « ايزبللا » وصانع استقلال الارجنتين الحديثة ــ فكل شيء في « بحر السياسة » قابل للنسيان .. قابل للنسيان بعد لحظــة ، وقابل للنسيان بعد حين ، فليس ثمة قانون في هذا « البحر » المتقلب .. والمخيف .. يمكن أن يحول بين « اســـماكه المتوحشة » .. وبين نهش لحوم البشر .!!

واذا كانت هناك سيدة اقتربت من « بحر السياسة » ــ اقول « اقتربت » .. ولا أقول « غاصت ــ دون أن تنهش « أسماكه المتوحشة » لحمها ، فهذه السيدة هي « ملكة أنجلترا » . ولم تتعفف « الاسماك المتوحشة » عن نهش لحم هذه السيدة ، ليس فقط لانها تعلم أنها ــ اي السيدة الملكة ــ لا تملك « الجرأة » على خـــوض « البحر » الذي ترقد في أعماقه .. وانما لانها ــ أولا .. وقبل كل شيء .. وبعد كل شيء ــ لا تملك « الحق » في ان تخوضه .. فهي ليست أكثر من مجرد « رمز » .. « صورة من تراث » .. « ماســـة في تاج » .. يلذ للبريطانيين أن يظلوا محتفظين به .. ربما كتحفة من أغلى التحف .!!

***

ومن هنا أقول : انه اذا كان هناك من يحاول .. أو من يحاولون .. اغراء السيدة « جيهان السادات » بالانصراف عن « بحيرة الخير » الصافية ، الرقراقة .. الى « بحر السياسة » الاسود اللون ، المتـــلاطم الموج ، المتوحش السمك ــ فانني لا استطيع ان اثق بحسن نواياهم نحوها ، ولا بانهم يريدون بها اولها خيرا كثيرا .. أو قليلا .. ليس ذلك فقط ، بل انني أستطيع القول انهم لا ينطوون على

شيء يحسن النية نحـو الرئيس السادات نفسه .. ولا يريدون به ، أو له ، خيرا كثيرا .. أو قليلا .

على انني واثق ـ على الرغم من ان احدا فى مصر لم يكذب مانشرته صحيفة « السياسة » ـ من أن الرئيس السادات لا يمكن ان يفعلها ..

لماذا .. ؟

● أولا : لانه ، فيما أعتقد ، اشد ذكاء من أن يستدرج الى محظور خطير كهذا المحظور ..

● وثانيا : لانه رجل حكم عليه قدره بأن يخوض ـ ومنذ شبابه الباكر ـ فى « بحر السياسة » .. واتيح له أن يعرف الكثير عن اسرار هذا « البحر » ، وعن عواصفه .. وعن « الاسماك المتوحشة » التى ترقد فى أعماقه . ولان السادات قد خاض ، ومنذ شبابه الباكر ، فى « بحر السياسة » فانه لن يستطيع أن ينسى مالحق برجل كمصطفى النحاس ـ زعيم اكبر اغلبية شعبية بعد سعد زغلول ـ بسبب سماحه لزوجته بأن تقترب ، بصورة . أو بأخرى ، من « بحر السياسة » فلقـد نهشتت . « الأسماك المتوحشة » لحم الرجل .. ولحم زوجته معه .. والصقت به ، وبها ، أشياء لا يعلم الا الله وحده مقدار مافيها من حقيقة .. ولم يتردد أصـدق أصدقاء « مصطفى النحاس » فى النيل منه .. مـن خلال زوجته ، ومن خلال اقترابها من « بحر السياسة » .. واخذ تاريخ الرجل ـ ومامن شك فى انه رجل ذو تاريخ ـ يتساقط ، منذ تلك اللحظة ، صفحة .. بعـد

صفحة .. حتى نسي الناس ، او كادوا ، ان الرجل كان له تاريخ .!!

انور السادات ، في تصوري ، لا يمكن ان ينسى شيئا كهذا . لا يمكن ان ينساه كرجل غرق ، حتى الاذنين ، في « بحر السياسة » . كما انه لا يمكن ان ينساه كرجل جاء من اعماق القرية المصرية ، حيث يقتل الناس هناك ، وبلا ادنى تردد ، كل من تسول له نفسه ان ينال من « جماعتهم » بكلمة سوء .

وفي وقت ما .. لم يغضب الرئيس السادات من طلاب الجامعات حين قالوا فيه ـ شخصيا ـ كل ما أرادوا أن يقولوا . لكن المؤكد ان غضبا ، بغير حدود ، قد تملكه ، ولم يستطع أن يخلص نفسه منه بسهولة .. حين علم أن هؤلاء الطلاب قد تجاوزوه الى قرينته .

انور السادات يعلم ـ من خلال ما أضافت اليه الحياة من تجارب ـ انه ليس ثمة شيء يمكن أن يحمي هـــذه السيدة الفاضلة ، اذا هي انتقلت من « بحيرة الخير » حيث كل شيء صاف ، ورقراق ، ومضيء للنفس بالحب ، وبالوفاء ، وبالامل ـ الى « بحر السياسة » حيث لا شيء هناك الا العواصف ، والامواج ، و .. و « الاســـماك المتوحشة » .. ومن هنا ، فانني اكاد اقطع بانه لن يفعلها لا لشيء .. الا انه قادم من اعماق القرية المصرية . وايضا لانه اشد ذكاء من ان يفعلها .. مهما حاول الاخرون الذين لا اشك لحظة في انهم لا يريدون به ، او له ، خيرا كثيرا .. او قليلا .. اغراءه بأن يفعلها .

قدر مصر ..!!

فى القاهرة ، قال « ياسر عرفات » « انه لايستطيع ان يتصور أنه يمكن أن يكون هنـــاك حل لازمة الشرق الاوسط ، فى غياب مصر ، كما أنه لا يستطيع أن يتصور انه يمكن أن يكون هناك حل لمشـــكلات مصر ، بدون العرب .

وماقاله « ياسر عرفات » انما هو حقيقة مؤكدة تأكد شروق الشمس من المشرق . بيد ان هناك حقيقة أخرى لها نفس القدر من التأكيد ، نستطيع ان نضيفها الى تلك التى أعلنها ــ وهى أن مصر ــ حتى لو استطاعت أن تحل مشكلاتها بعيدا عن العرب ــ فانها لا ترضى .. ولا تستطيع .. بل ولا تملك أن تتخلى عن انتمائها العربى . فلقـد كانت مصر منتمية الى العرب ، وملتحمة بهم ــ باعتبارها جزءا من كل ــ قبل ان يكون لها أية مشكلات . بل لعل ماتعانيه مصر ، الآن ، من مشكلات صارت أكبر من قدراتها على الحل .. لم يكن ليصيبها شيء منها ، لو لم تخض بوصفها الدرع ، والطليعة ــ اربع حروب ضارية دفعت فيها مادفعت ، واصابها منها ما اصابها ، بسبب عروبتها التى قلنا أنها لا ترضى ، ولا تستطيع ، بل ولا تملك أن تتخلى عنها .

ان مصر هى الشقيق الاكبر للعرب جميعا . ولا يستطيع الشقيق الاكبر ولا هو يملك ، ان يتخلى عن أشقائه مهما وقع فى حقه من بعضهم .. أو منهم جميعا . انه لايستطيع

ذلك ، ولا يملكه ، لسببين :

● أولا — لانه الشقيق الاكبر .. ولانه الاكبر — فلابد من أن يكون هو الاكرم .. والاكثر تسامحا فى مواجهة كل ماقد يصيبه من أشقائه الآخرين .. أو بسببهم .

● ثانيا — ان الشقيق الاكبر ، مهما بلغ من قوة ، فانه لا يستطيع أن يخوض فى بحر الحياة المتلاطم الامواج .. والمشحون ، دوما ، بعوامل المد والجزر .. بعيدا عن أشقائه . انه — بهم — قوة .. وبدونهم ضعف . ولقد يضحى الشقيق الاكبر من أجل أشقائه الآخرين .. ولقد يحتمل منهم ، وفى سبيلهم ، مالاطاقة له على احتماله لكنه — فى كل الحالات — لا يملك أن يضج .. ولا أن يتململ .. فذلك هو قدره .. وتلك هى ضريبة موقعه .. وعليه أن يدفع هذه الضريبة بكل الحب .. وايضا بكل الرضى . وهذا ، فيما نعتقد ، هو ماتفعله مصر اليوم .. وماسوف تظل تفعله غدا .. وبعد غد .. من موقع القوة ، لا من موقع الضعف .. من موقع الايمان ، لا من موقع المسايرة ، من موقع المسئولية لا من موقع الاتجار بالشعارات .. و « لطق الحنك » !!

مصر زعامة ..!!

« مصر .. « زعامة » .. ولن ينتقص من قدرها « كزعامة » أن يتطاول عليها المتطاولون . ولان مصر « زعامة » ، فانه يتحتم أن يكون كل مايصدر عنها ـ عن كتابها على وجه الخصوص ـ نموذجا في « موضوعية الحوار » . وليس من « موضوعية الحوار » في شيء ، أن يصف زميل عزيز من الكتاب وزير خارجية سوريا بانه « الخدام » .!! كذلك ليس من « موضوعية الحوار » أن ينزلق زميل آخر ، فيتهم الاخوة الفلسطينيين بما لا يجوز لعربي ـ تحت أية ظروف ـ أن يتهم به عربيا آخر ..

وما صدر عن الزميلين العزيزين ، أدنى الى أن يكون « سبا » .. وما كان « السب » ، ولن يكون ، الا وسيلة العاجزين . والكاتبان ـ كما أعرفهما ـ ليسا بعاجزين . بل هما قادران ـ وكلاهما يحمل ليسانس الحقوق ـ على مقارعة الحجة بالحجة ، والدليل بما يدحضه . لكنهما سمحا لنفسيهما بأن يستسلما « للانفعال » ، فوقعا فيما لايجوز لمثليهما ان يقع فيه .. وبما أضحى محسوبا على مصر نفسها ، اكثر مما هو محسوبا على أى منهما .

صحيح أن وزير خارجية سوريا قد تجاوز ..وصحيح ايضا أن بعض قادة الثورة الفلسطينية قد ارتضوا من أنفسهم أن يتهموا مصر بالخيانة .. الا أن ذلك كله لا ينهض مبررا لان يتنكب الزملاء الكتاب طريق«موضوعية

الحوار » . فليست هذه هى المرة الاولى — ولن تكون الاخيرة — التى تتهم فيها مصر بما اتهمها به السيد عبد الحليم خدام ، كما أنها ليست المرة الاولى — ولن تكون الاخيرة — التى يتهمها فيها بعض قادة الثورة الفلسطينيةبالخيانة. وليس ببعيد ذلك اليوم الذى اتهموا فيه « عبد الناصر » نفسه ، بنفس هذه التهمة الخطيرة والشائنة ، لانه قبل « مبادرة روجرز » . ثم عادوا فاستغفروا الرجل عما قالوه فى حقه .. بعدما عرفوا « السر » وراء قبوله لهذه المبادرة .

وصحيح أن كل ذلك خطير ، ومستفز ، وجدير بأن يذهب بصبر الصابرين .. آلا أن مصر — كزعامة .. وممثلة ، على وجه الخصوص ، فى أقلام كتابها — مطلوب منها ان تعلو بنفسها فوق ذلك كله .. فلا تجاريه ، ولا تتوقف عنده ، ولا تسمح بأن تجرجر اليه .. بعيداً عن « موضوعية الحوار » . فذلك هو قدر « الزعامة » .. وعلى « الزعامة » أن تتحمل — وبكل الصبر — تبعات قدرها ، مهما ظنت بها الظنون .

اننا شركاء معركة واحدة .. وشركاء مصير واحد .. وليس من حق شركاء المعركة الواحدة ، والمصير الواحد ، ان يلوث بعضهم بعضا ، ولا أن يحقر بعضهم بعضا ، ولا ان يدمر بعضهم بعضا .. واذا ماتجاوز أحدهم — والتجاوز وارد فى كل وقت — فان على الاكبر ان يتحمل .. وان يحتمل .. والاكبر هنا هو « مصر » .. وذلك — واكرر — هو قدرها .

ناصر .. ليس نبيا !!

لم يقل احد ان « عبد الناصر » كان نبيا من الإنبياء، كذلك لم يقل احد ان الرجل كان بشراً فوق الاخطاء ، او اكبر من الاخطاء .. وانما كان « عبد الناصر » بشرا ككل البشر . يخطىء ، ويصيب .. ويوفق فى أمور ، ويجانبه التوفيق فى أمور اخرى . ولا اعتقد ان الذين يحاولون « تأليه » عبد الناصر ، أو « تقديسه » يحملون له من الحب اكثر من اولئك الذين يحاولون تشويه صورته وتشويه سيرته ، وتحميله مسئولية كل ماارتكبه الاخرون فى عهده ، من خطايا .. أو من اخطاء !.

الرجل اخطأ .. هذا صحيح ..

والرجل مسئول عن كثير مما وقع ، فى عهده ، من اخطاء .. هذا أيضا صحيح . ولكن اخطاء الرجل .. ومسئوليته عن هذه الاخطاء .. لا يمكن ان تنهض مبررا لهذه الحملة الشرسة التى شنها البعض ضد شخصه ، وضد عهده كله ، وضد تاريخه كله ، الى حد أن مناضلا وطنيا كالاستاذ احمد حسين زعيم « جماعة مصر الفتاة » التى كان « عبد الناصر » ، فى الثلاثينيات ، واحداً من جنودها .. حاول فى مقال كتبه ، ذات يوم ، فى صحيفة الاخبار ــ أن يجرده حتى من فضل قيامه بتأسيس « جماعة الضباط الاحرار » !! ولا اظن ان هناك تجن على تاريخ الرجل أبشع من هذا التجنى .

لا .. ليس الى هذا الحد يجوز أن تصل العداوة

بالناس . ومسار مثل هذه السهام الطائشة لابد وان يرتد بها ، فى النهاية ، الى صدور اصحابها .

لماذا ؟.

لانها لم تنطلق ، اساسا ، من منطق تقييم موضوعى ، ودقيق ، وامين لحقبه من عمر مصر .. بل ومن عمر الامة العربية كلها .. استمرت ثماني عشرة سنة .. سقطت ، خلالها ، عهود وقامت عهود .. وانزاح خلالها ، والى الابد ، حكام ، وحل محلهم آخرون .. وكان للرجل فى هذا كله ــ بصورة أو بأخرى ــ أثر او آثار .

لقد انطلق المهاجمون ، وبكل مالديهم من « شراسة »، يهاجمون عبد الناصر .. كذلك انطلق المدافعون ، وبكل مالديهم من « حماسة » ، يدافعون عنه . فكانت النتيجة ان ضاعت « الحقيقة » بين شراسة هؤلاء وحماسة أولئك وبين هذه وتلك ، لم يعد أحد يستطيع أن يعرف : أين الحقيقة .!؟

ان « عبد الناصر » زعامة .. لاحد يجرؤ على انكار هذا . و « عبد الناصر » تاريخ .. لا أحد أيضا يجرؤ على انكار هذا . ولقد وقع « عبد الناصر » : الزعامة .. والتاريخ .. فى أخطاء قليلة ، أو كثيرة .. جسيمة ، أو صغيرة .. ولكن هذا كله شيء ، وان يقال عن الرجل ــ بالتجنى .. وبالافتراء ــ انه « لص » .. فذلك شيء آخر .. شيء لاعلاقة له ــ مطلقا ــ بالتاريخ ولا بالتقييم ، ولا حتى بفن « الاثارة الصحفية » . لان «الاثارة الصحفية» كما أفهمها ــ مع أنى لست من مدرستها ــ لا تنطلق ، اصلا ، من فراغ .. ولا تقوم على غير أساس .!!

بدلة عبد الناصر ..!!

« جمال عبد الناصر .. بكل أمجاده ، وأيضا بكل ماوقع فيه من أخطاء ، شخصية غير قابلة للتكرار . انه واحد من « فلتات التاريخ » التى قد تقع مرة كل مائة سنة ، والتى قد لاتقع على الاطلاق . وربما لو كـــان « عبد الناصر » ــ بكل مميزاته الشخصية ، وبكل مقومات الزعامة التى ولدت له ، ومعه ــ قد وجد فى بلد آخــر غير مصر .. لما صار له كل ذلك التأثير الذى صار له ، ولما أصبحت له كل تلك المكانة العربية والعالميـــة التى أصبحت له . فبغض النظر عن كل المميزات الشـخصية التى كانت لعبد الناصر .. بغض النظر أيضا عن كــل مقومات الزعامة التى ولدت له ومعه ، الا أن المؤكد ان مصر بماضيها الحضارى والتــاريخى ، وبموقعهــــا الاستراتيجى ، وبكثافتها السكانية ، قد عكست ذلك كله على زعامته ، وأضفت عليها كل ماكان لها من ثقل على الصعيدين العربى والعالمى .

تلك هى الحقيقة المؤكدة ، والتى ماكان يجب أن تغيب، مطلقا ، عن أذهان البعض ممن يحلمون أو يتخيلون ، انهم قادرون على أن يرتدوا « بدلة عبد الناصر » ويمتشـــقوا سلاحه .. ويلعبوا دوره !! .

انه تطلع صعب .. بل هو تطلع مستحيل .. لانه على فرض أن « الفلتة التاريخية » ، المثلة فى عبد الناصر قد تكررت فيهم ، وبمثل هذه السرعــــة .. فان مصر :

التاريخ .. والموقع .. والكثافة السكانية ، ستظل تنقصهم .. وسيظلون هم مفتقرين ، أشد الافتقار .. وكل الافتقار ، الى مايمنحهم الوزن والثقل ، سواء على مستوى المنطقة .. او على مستوى العالم . ولو أن هؤلاء الذين يمارسون « التطلع المستحيل » الى ارتداء « بدلة عبد الناصر » ، وامتشاق سلاحه ، ولعب دوره ـ آمنوا بأن دورهم الطبيعي .. والصحيح .. هو أن يغلقوا على انفسهم أبواب بلادهم .. ويبقوا هم وراء هذه الابواب ، يصنعون .. ويزرعون .. ويعملون .. ويجددون انسان بلادهم .. ويفعلون ـ فى كلمة واحدة ـ كل ما فعلته الصين بنفسها لنفسها .. فلربما صار لهم شأن غير شأنهم .. ولربما صارت لهم مكانة غير مكانتهم ، ولربما أستطاعوا ـ نتيجة لذلك كله ـ أن يجدوا لهم مكانا فى التاريخ .. بجوار « عبد الناصر » .

الزلزال ..!!

اعترفت « جولدا مائير » ...

اعترفت فى مذكراتها : « ان مامنيت به اسرائيل من هزيمة ، فى حرب أكتوبر ؛ لايمكن أن تمحوه الايام .. ولسوف اعيش بحسرتى البقية الباقية من أيامى » .

ولم يكن سهلا أن تعترف « جولدا مائير » بهذه الحقيقة المرة . لولا انها ــ اى الحقيقة ــ أقوى منها .. ومن كل الصلف والغرور اللذين تتصف بهمـــا الصهيونية ... و « مائير » واحدة من غلاتها .!

وقالت « مائير » ، فى مذكراتها ، « انها نادمة لانها لم تستجبُ لتحذيرات قلبها ألتى حدثها بأن العرب سيقومون بالهجوم صباح ٥ أكتوبر » .. واذا صح ماقالته « مائير » عن تحذيرات قلبها .. فليس من شك فى ان الله قد أعمى « هذا القلب » لكى يحدث ماحدث .. فليس معقولا أن يتخلى الله عن عباده المؤمنين الى مالا نهاية . انه قد يتخلى عنهم « لبعض الوقت » لكى يؤدبهم .. ولكى لا تأخذهم الخيلاء ولا الغرور .. كما حدث مع المسلمين الاوائل فى « غزوة حنين » ، فاذا ماعادوا الى الله .. وعــرفوا اخطاءهم .. واقروا بخطاياهم .. فانه لابد وأن ينصرهم على أعدائهم .. خاصة اذا كان هؤلاء الاعداء من أولئك الذين قتلوا الانبياء ، وحنثوا بالعهد ، ولا وعد لهم ولا كلمة .!

ولقد وصفت « مائير » حرب أكتوبر بأنهـــا كـانت « مأساة حقيقية بالنسبة لاسرائيل » . وكـان لابد ان تكون كذلك . فحين يغرق شعب نفسه فى الصـلف ، ويستسلم بالكامل لغرور القوة التى يتصورها لن تهـزم .. فان أية ضربة تصيبه ، انما هى « مأساة » بالنسـبة له . فما البال اذا كانت هذه الضربة فى حجم « ضربة اكتوبر » التى خلخلت اسرائيل من الداخل .. وأرغمت قادتها على أن يطلقوا عليها اسم « الزلزال » ؟!.

لقد اعترفت « مائير » .. ولم يكن سهلا أن تعترف ، ولسوف تتوالى « الاعترافات » .. وليس المهم ان يعترفوا ولكن المهم أن يعوا الدرس ، ويتفهموا عبره .. ويتفهموا ــ قبل كل شيء ــ « ان الجريمة لا تفيد » . وليس هناك ــ فى الماضى ، ولا فىالحاضر ، وما أظن انه سوف يكون فى المستقبل ــ جرائم اقبح .. ولا ابشع .. من جرائم الصهيونية التى هى نفسها جرائم اسرائيل !

عن :
العرب .. وماسيهم !!

لم نكن .. ولن نكون ..!!

لم نكن ـ نحن العرب ـ ولن نكون ، فى مأمن من تحرشات « الكبار » بنا .. ولم نكن ـ نحن العرب ـ ولن نكون ، فى مأمن من مخططاتهم ، وتدبيراتهم ، ومؤامراتهم اذا تعذر ضربنا من الداخل ، فضربنا من الخارج ، ممكن .. ولا شيء . فى عرف « الكبار » صعب .. ولا شيء ، فى عرفهم ، مستحيل .!!

ففى سنة ٥٦ ، كان ألعدوآن الثلاثى على مصر ، وفى سنة ٦٧ ، تكرر نفس العدوان .. ولكن ، بصورة أخرى!! وفى سنة ٥٨ ، كانت أمريكا جاهزة بأسطولها السادس للتدخل فى لبنان .. تماما مثلما هى جاهزة ، اليوم ، للتدخل بنفس الاسطول .. فى نفس البلد !! وكأن الزمن لم يمض الى الامام مايقرب من عشرين سنة .. ذهب خلالها رجال ، وجاء رجال .. ولكن الهدف الشرير بقى ثابتا ، لم يصبه تغيير .. ولا تبديل !!

ولقد طرات علينا ـ نحن العرب ـ خلال تلك الحقبة من الزمن ، متغيرات كثيرة .. تكاثرت اعدادنا ، وتزايدت قوتنا ، وتضخمت ثرواتنا ، وظهر للعالم كله أن لنا أنيابا نستطيع ، وقت اللزوم ، أن نستعملها .

ولكن هذه المتغيرات جميعها ، كانت ـ لسوء الحظ ـ علينا ، وليست لنا . لماذا .. ؟!

لانها أثارت مخاوف أولئك « الكبار » ، منا ، وحركت

أطماعهم بنا . فالعرب ، باعدادهم الكثيرة ، خطر كبير . والعرب — اقوياء — بالاضافة الى هذا — خطر اكبر . والعرب — اغنياء — بالاضافة الى هذا وذاك ، خطر أكبر .. وأكبر . ومن هنا .. اتسعت دائرة المؤامـرات ، وتزايدت ، وتزايدت حدتها .. وضراوتها ، واصـبح تمزيق العرب .. وتفتيت قواهم بالضرب من الداخل ، أو بالضرب من الخارج ، هدفا — لدى الكبار — يتقـدم كل الاهداف ، ويعلو على كل الاهداف .. وما يحدث في لبنان ، حتى هذه الساعة ، ليس سوى حلقـة في السلسلة ، فاذا مافشلت هـذه « الحلقة » .. فان « السلسلة » سيظل بها حلقات كثيرة .. كثيرة !!

فان نحن أفلتنا ، اليوم ، من ذلك « الفـخ » الذى نصبوه لنا في لبنان ، فلا شيء يمنع من اعادة نصبه مرة ثانية ، وثالثة .. ربما في دمشق ، وربما في بغداد ، وربما في القاهرة ، وربما في الخليج العربي ... فأرض العرب ، جميعها ، صالحة — من وجهة نظـر أولئك « الكبار » — لنصب « الفخاخ » بها في أية لحظة .. وفي كل لحظة .!!

ومع اننا — نحن العرب — لسنا اغبياء . ومع اننا ، على العكس من هذا ، مشهود لنا بالفطنة ، وبالذكاء .. الا اننا — وعلى الرغم من كل ذكائنا ، ومن كل فطنتنا — جاهزون ، دائما ، لمساعدة المتآمرين على تحقيق كل مايريدونه لنا ، وكل مايريدونه بنا !!

فهل آن الاوان لنا — نحن العرب — لكي نصحوا ؟ هل آن الأوان لكي نتفهم حقيقة المؤامـرة ، وطبيعة

المؤامرة واهداف المؤامرة !

هل آن الاوان لكي نفهم أن « لبنان » لايمكن أن يكون هو المطلوب . انما المطلوب انما هو نحن .. نحن جميعا .. من اقصي الشرق الى اقصى الغرب .. من الخليج الى المحيط ! !!

هل آن الاوان لكي نفهم هذا .. ام اننا سنظل ، العمر كله ، هكذا .. لا نكاد نخرج من « فخ » .. الا لكى نسقط فى « فخ جديد » ؟!

ياويل دمشق ..!!

برغم مضى اكثر من ثلاثين سنة على انتهاء الحرب العالمية الثانية .. وبرغم اختلاف الدين ، واللغة ، والجنس ، والعقائد بين رفقاء السلاح فى تلك الحرب . فان روسيا ـ حتى الآن ـ لم تحارب أمريكا .. ولا أمريكا حاربت روسيا .. وكذلك فرنسا لم تحارب انجلترا .. والعكس صحيح .. اما رفقاء السلاح فى « حرب أكتوبر » فانهم لم يستطيعوا الصبر على أنفسهم أكثر من سنوات ثلاث !! بعدها .. شهروا السلاح فى وجه بعضهم البعض ، وحركوا المدافع ضد بعضهم البعض ، وأسالوا الدماء ـ بحوراً ـ من أجساد بعضهم البعض !!

لقد رافضت أذناى ـ ولفترة طويلة ـ أن تصدق المذيع وهو يستهل نشرة الاخبار بخبر يصعب تصديقه .. بل يستحيل تصديقه . وكان الخبر يقول : « لاتزال قوات التحالف الوطنى اللبنانى الفلسطينى ، مشتبكة فى قتال ضار مع القوات السورية الزاحفة على لبنان » !!

ولكن مالم أرد تصديقه ، كان « حقيقة » .. أليمة : نعم .. محطمة للنفس ، وللروح ، وللمشاعر .. نعم ، ولكنها « حقيقة » .. ولا سبيل ، مطلقا ، لتكذيب السمع ازاءها . !!

ولكن ، كيف .. ؟!

كيف رضيت « دمشق الاسد » لنفسها ، وعلى نفسها ، أن تفعل بالمقاومة الفلسطينية مالم تنجح « تل أبيب

جولدامائير .. وموشي ديان » أن تفعله بها ؟ ولحساب من .. ولمصلحة من .. تفعل « دمشق الاسد » كل هذا الذى تفعله ؟!!

الحساب لبنان ؟..

أبدا .

الحساب القضية العربية كلها ؟..

مستحيل .

الحساب سوريا نفسها ؟..

مستحيل كذلك ..

اذن .. لحساب من .. ومن الذى يمكن أن يستفيد من ذبح المقاومة .. وتدمير قواها .. وابادة رجالها ؟!

صاحب المصلحة معروف .. والمستفيد معروف .. واذا لم تكن « دمشق الاسد » ضالعة ــ بصورة أو باخرى ــ مع هذا المستفيد ، فهى ــ فى أقل القليل ــ قد رضيت لنفسها وعلى نفسها ، أن تقوم بدور « مخلب القط » فى هذه المأساة العربية التى لا تشبهها مأساة غير مأســاة « ايلول الاسود » .

وياويل « دمشق الاسد » مما سوف يكتبه التاريخ عنها .

لعبة الأمم ..!!

عندما كتب « مايلز كوبلاند » ، فى سنة ١٩٦٧ ، كتابه الشهير جدا .. والخطير جدا : « لعبة الامم » .. كان « اللاعب » ، فى ذلك الوقت ، واحدا .. وكان « الملعب » أيضا واحدا .. كان « الملعب » ... هو « الساحة » التى تقع عليها — طولا وعرضا — « أمم الشرق الاوسط » .. وكان « اللاعب » هو أمريكا !! .

ومنذ اليوم الذى كتب فيه « كوبلاند » كتابه ذلك ،اتسعت دائرة « اللعبة » .. وتكاثر عدد « اللاعب » .. وتزايد — وبصورة مخيفة — عدد « اللاعبين » . فحيثما وجهت نظرك اليوم .. فانك ، حتما ، سوف ترى وتحس ، أن هناك « لعبة » .. وان هناك « لاعبين » .. وان الامر لم يعد مقصورا على أمريكا .. تلعب وحدها ، وتعبث وحدها وتفسد وحدها !! وانما كل « الامم » — الكبرى منها .. والصغرى على السواء — أصبحت موجودة فى قلب « اللعبة » ففى انجولا — على سبيل المثال — كانت أمريكا موجودة ، وكان الاتحاد السوفيتى موجودا . وكانت كوبا — أيضا — موجودة !! وفى لبنان — أيضا على سبيل المثال — كانت أمريكا وماتزال ، موجودة .. وكان الاتحاد السوفيتى ، ومايزال ، موجودا ، وكانت فرنسا ، وماتزال ، موجودة ، وكانت سوريا ، وماتزال ، موجودة . وحتى ليبيا كانت — أيضا — وماتزال موجودة !!

وفى الخليج العربى .. يكاد جميع من ذكرت ، ومن

لم اذكر ، ان يكونوا موجودين . « فاللعيب » هنا ، واسع جدا .. وغنى جدا .. ولهذا السبب .. وذلك . لابد أن تكون « اللعبة » لذيذة جدا .. ومغرية جدا !!

المهم .. والمحير .. والمثير ، حقيقة ، هو أن « الامم » التى يتخذها « اللاعبون » ــ الكبار والصغار ــ مسرحا .. يمارسون من فوق خشبته ، لعبتهم المثيرة .. والخطيرة .. لا تريد أن تشعر ، ولا أن تحس بما يجرى لها ، ولا بما يجرى معها .. وكأنها ــ جميعــا ــ قــد نومت مغناطيسيا .. او كأن « اللاعبين » ــ صغارا .. وكبارا ــ يحقنونها بنوع خاص من « المخدر » يسلبها الاحساس والسمع والبصر !!.

والى أن تحس هذه الامم .. وتسمع .. وترى .. فان « اللعبة » الخطرة ستظل مستمرة .. وسيظــل « اللاعبون » يتزايدون . وسيظل عدد « الملاعب » يتكاثر .. وبدلا من أن يكون في « المكتبة العالمية » .. كتاب واحد .. اسمه : « لعبة الامم » .. ســوف يصبح فى هذه المكتبة عشرات الكتب ، ان لم يكن مئات الكتب التى سوف تحمل جميعها اسما واحدا هو : « لعبة الامم ».. التى لا تريد ان تحس ، ولا ان تري ، ولا ان تسمع !!.

لبنان .. فقد عقله !!

لو أن اسرائيل شنت على لبنان حربا كاملة شاملة ، لما كان ممكنا أن تحدث به من الخراب ومن الدمار ، أكثر مما أحدثه به ابناؤه .!! فلقد اكلت النيران « بيروت » عن آخرها .. واصبحت المدينة التى كانت واحدة من اكثر عواصم العالم العربى تألقا ، ونشاطا ، وازدهارا — اصبحت خرابا ، واطلالا ، ومزيجا مروعا من النار ، والدم ، والدمار !.

ولقد أوضحت المأساة المتفجرة بالدماء ، وبأشـــلاء الضحايا ، والتى اتخذت من كل ركن فى لبنان مسرحا تتحرك فوقه بكل ألعنف ، والجنون ، واللامبـــالاة — اوضحت أن الزعماء المسلمين قد فقدوا — وبالكامل — سيطرتهم على « الشارع المسلم » كما أوضحت أن الزعماء المسيحيين قد فقدوا — وبالكامل ايضا — سيطرتهم على « الشارع المسيحى » .. وأنها لكارثة فادحة أن يــكون هؤلاء الزعماء .. وأولئك .. قد فقدوا سيطرتهم على شوارعهم . وهى كارثة أشد فداحة أن تكون المأساة التى تتفجر بالدماء ، وبأشلاء الضحايا ، والتى تتحرك كالافعى فى كل ركن من اركان لبنـــان ، تتم بتوجيههـــم .. أو برضائهم .. او حتى بسكوتهم الذى لايختلف فى شىء ، عن رضائهم !!.

ومصيبة المصائب فيما جرى فى لبنان ، أن أحدا لايكاد يعرف ماذا يريد الفرقاء المتقاتلون بالضـــبط . فمـــن

المستحيل ان يتصور احد أن المسلمين يريدون لبنان خالصا لهم . كذلك من المستحيل أن يتصور احد ان ان المسيحيين يريدون لبنان خالصا لهم ، اذ أن لبنان لن يخلص لاى من الفريقين .. حتى ولو ظلا ، الى آخر العمر يتقاتلان .

لقد كان لبنان ــ ويتحتم ان يظل ــ نموذجا فريدا لتعايش الطوائف المتباينة من ابنائه .. وهو لم يتالق ، ولم يزدهر ، الا نتيجة لهذا التعايش .. وبسببه .. وأنه للجنون بعينه أن تظن طائفة من طوائف لبنان انها قادرة على ابادة الاخرى . فذلك مستحيل استحالة تحرك جبال لبنان من مواضعها !.

فهل بقى عند الشارع فى لبنان ، بقية من عقل تجعله يدرك هذه الحقيقة ؟.

وهل بقيت عند زعماء الشارع فى لبنان بقية من قوة، او من سيطرة ، أو من نفوذ ، تجعلهم يستطيعون اقناع شوارعهم بهذه الحقيقة ؟.

الا ليتهم يستطيعون .. قبل ان يتسرب من أيديهم كل شيء ، ولا يبقى لهم من لبنان المتألق ، المزدهر ، الا مجرد رماد تذروه الرياح !!

السم .. فى الدسم !!

يبدو أن محاولة شق الصف العربى ، ستظل هـدفا أساسيا لعديد من الصحف الغربية عامة ، والانجليزية على وجه الخصوص . أنها لم تسأم من ذلك ، ولاتمل ، ولا يتسرب اليها اليأس . ومن هنا ــ وتمشـيا مع خطتها ، وكمحاولة لمتابعة اهدافها ــ لم تكد تتأكد من ان «الفيصل» . . العظيم . . قد غاب عن مسرح الاحداث ، حتى راحت تمشي بالوقيعة ــ وعلى طريقة : « السم فى الدسم » ــ بين الاخ واخيه . فمضت تصف الامير فهد . . ولى عهد السعودية الجديد .. بانه « الرجل القوى » فى هيئة السلطة الجديدة . وبينما اخذت هذه الصحف تردد هذه النغمة ــ صراحة ــ بالنسبة للامير فهد . . فانها لم تتردد فى أن « تلمح » الى أن العاهل السعودى الجديد . . الملك خالد . . ليس له من « القوة » لولى عهده : الامير فهد . . وكأنما القضية الساخنة التى فرضت نفسها على المسرح العالمى ــ بعد غياب «الفيصل» ــ هى قضية القوة . . والضعف ، وليست قضية سـياسة السعودية ــ بعد « الفيصل » ــ بتروليا ... وعربيا ... ودوليا .

ومع أن هؤلاء الذى يحاولون ان يمشوا بالوقيعة بين الاخ واخيه ، عن طريق المفاضلة والمقارنة ، يعلمون جيدا ان قوة العربية السعودية لم تتحقق ، اساسا ، الا من خلال تلاحم الاسرة الحاكمة فيها .. ومع انهم يدركون

أن كل فرد في هذه الاسرة المتلاحمة ، والقوية بتلاحمها ، يدرك تماما السر الحقيقي وراء قوة اسرته .. الا انهم ــ مع ذلك ــ يحاولون .. وما المانع ؟! فقد تجدى المحاولة .. وينشق الصف .. وتتبدد القوة !.

لكن المؤكد أن المحاولة لن تجدى .. فلسوف يظل «الفيصل» .. العظيم ــ حتى بعد غيابه ــ يسحب ظلاله على أخوته . يسحبها عليهم قوة ، ويسحبها عليهم ترابطا ويسحبها عليهم تلاحمالن ينفذ من خلاله دس اولئك الدساسين من غربان « الامبراطورية » التى غابت عنها الشمس .. لكى لا تعود الي شروق .

من أجل حفنة أصوات !!

من أجل حفنة أصوات .. بدأ « جيمي كـــارتر » المرشح الديمقراطي لرئاسة الولايات المتحدة الامريكية ، رحلة تقديم « القرابين » آلى يهود أمريكا بهدف الفـــوز بأصواتهم .؟!

وليس ثمة « قربان » يستطيع أى مرشح أمريـــكي تقديمه لليهود ، أحلى .. ولا اشهى .. من الدول العربية ومن هنا ، اختار « كارتر » ان يبدأ بها .. فقال فى واحد من خطاباته الانتخابية « ان على امريكا أن تفرض حصارا اقتصاديا ، وصناعيا على الدول العربية ، ان هى عادت مرة اخرى الى اشهار سلاح البترول فى وجه العــالم الغربى » !!

ونسى « كارتر » ـ كما نسى كثيرون غيره من قبل .. وكما سوف ينسى كثيرون غيره من بعد ـ ان الدول العربية لم تشهر سلاح البترول فى وجه العالم الغربى الا مــن قبيل « الدفاع عن النفس » .. كذلك نسى « كارتر » ـ كما نسى كثيرون غيره من قبل . وكما سوف ينسى كثيرون غيره من بعد ـ ان « الدفاع عن النفس » انما هو حــق مقدس من حقوق الانسان .. وان هذا « الحق المقدس » لم يتقرر للانسان بمقتضى قانون وضعى .. وانما هــو حق مقرر بمقتضى قانون الهى . ففى شريعتنا السمحاء ـ وعلى الرغم من كل سماحتها ـ ان « العين بالعين .. والسن بالسن » .. وان « لكم فى القصاص حياة » .

واذن .. فنحن حين شهرنا سلاح البترول في وجه العالم الغربي ، لم تكن نحاول ان تقتل أحداً .. فقط ، كنا نقتص لانفسنا من قاتلينا .. لم نكن فريقا من « الكاوبوى » تقتل بمناسبة ، وبغير مناسبة ، كل من نلقاه على الطريق : اما عن خبل .. واما عن غرور مجنون بقانون القوة .. واما عن تجرد مشين من جميع الخصائص التى فرق بها الله بين الانسان والحيوان !!

وليقل « كارتر » كل مايريد أن يقول . فلم يعد لمثل هذه التهديدات أن تخيفنا . فالذين يدفعون القتل عن انفسهم ، لن تعنيهم مثل هذه التهديدات فى كثير او قليل . وانما الذى يعنيهم .. والذى سوف يظل يعنيهم .. هو : ان يعيشوا بكرامة .. او ان يموتوا بشرف .

يالفرحة اسرائيل !!

الذى يحدث الآن ، فى الساحة العربية ، شىء أقل مايقال فيه أنه يمزق القلب .. ولا يمكن أن يكون هنـاك تعليق على ذلك الذى يحدث ، أدق من القول : يالفرحة اسرائيل ..!!

نعم .. يالفرحة اسرائيـل . !! فأكبر اليقين انهـا ماتسوف .. وما تنتظر .. وما تماطل ، الا انتظارا لهذا الذى يحدث .. انتظارا لان يتمزق الصف ، وتتفتت القوة ، وتذهب الوحدة التى أذهلت الدنيا – فى حرب اكتوبر – أدراج الرياح !!

وربما كانت اسرائيل تنتظر « بعض » هذا الذى يحدث .. اما « كل » هذا الذى يحدث ، فما نظن انهـا كانت تنتظره .. او تتوقعه . صحيح ان اختلافاتنا ، قبـل حرب اكتوبر .. وحتى حرب اكتوبر ، كانت كبيرة .. وأيضا كانت ضارية . لكن السرعة ، بل والقوة اللتـين تجمع بها الصف العربى فى مواجهة تلك الحرب .. كانت تنبىء بأننا تجاوزنا خلافاتنا ، وأننا تعلمنا الدرس ، واننا وضعنا ايدينا على نقاط القوة ، والضعف فينا . لكن الحرب ماكادت تنتهى – وهى فى الحقيقة لم تنته .. ولن تنتهى – حتى عدنا كما كنا .. عدنا يتهم بعضنا بعضا بالاستسلام ، وبالتفريط ، بل وبالخيانة .!!

ثم .. ثم ماذا ؟

ثم أندلعت النيران ..!!

* أطلقت بغداد على دمشق صواريخ اعلامية قاتلة .. وبادلتها دمشق صواريخا بصواريخ . !!

* وفى القاهرة . بدأ الرئيس الســـادات يرد على النيران التى فتحها عليه .. وعلى مصر .. العقيـــد القذافى ..

* وفى بيروت .. اطلت ، برأسها ، فتنة سوداء لن تبقى — فيما لو لم توأد فى المهد — ولن تذر !!

ان تطويق هذا الذى يجرى فى الساحة العربية الان ، أمانة فى اعناق القادة العرب الذين لم تمسسهم النــار التى شبت بين الاخوة .. أيا كانت مواقعهم ومعتقداتهم .. وهم مطالبون لان يتحركوا بأقصى السرعة والقوة ، قبل أن تتحول هذه النيران الى شيء يستحيل تطويقه .

ان الموقف صعب .. والخطر عظيم .. و .. و « فيليب » على الابواب . لا .. بل هو داخل الابواب .!

تل الزعتر !!

مثلما بقيت « ستالينجراد » رمزا انسانيا باهرا على عظمة الرجال ، وبطولة الرجال ، وصمود الرجال .. كذلك - وبنفس القدر ... والعظمة - سوف يبقى « تل الزعتر » . فليس ثمة فارق يذكر بين فاشية « هتلر » وفاشية « نمور شمعون » ، وكتائب الجميل .. ايضا ، ليس ثمة فارق يذكر بين بطولة ، وصمود الرجال من ابناء تلك المدينة الروسية الباسلة التى دخلت التاريخ من أوسع أبوابه ، وبين بطولة وصمود الرجال من ابناء « مخيم تل الزعتر » الذى دخل هو الاخر التاريخ من اوسع أبوابه . فلقد صمد أبناء « ستالينجراد » ثلاثة اشهر كاملة للنيران تنهال عليهم كالمطر من السماء ، وكالبراكين من باطن الارض .. وكذلك صمد الابطال من أبناء « تل الزعتر » .

اربعة وخمسون يوما مرت عليهم وهم ، كالجبال ، صامدون .. تتكسر على صخرة مقاومتهم الباسلة الهجمة بعد الهجمة .. والغارة بعد الغارة .. ويتفتت السلاح بعد السلاح !!. استشهد كثيرون ، وجرح كثيرون ، ومات بفعل الظمأ ، وبفعل نزيف الدم ، كثيرون .. كل ذلك ، والمخيم صامد .. يقاوم ولا يستسلم ، يشمخ براسه ولا يركع ، ينزف الدم ويموت واقفا !!.

مثال لن يفنيه الزمن لعظمة الرجال ، وصمود

الرجال ، وبطولة الرجال . فلما ان نفد من « المخيم البطل » كل شيء : السلاح ، والطعام ، والماء ، والدم .. استطاع الفاشيون الجدد .. « نمور شمعون » .. و « كتائب الجميل » .. أن يدخلوه ولكن .. بعـــد ماذا ؟! .

بعد أن دفعوا الثمن فادحا .. بعد ان قتـــل منهم « المخيم » آلاف « الكلاب » .. وبعد ان ترك منهم آلافا أخرين لاهم بالموتى ، ولاهم بالاحياء .. وبعد ان حملهم عارا لن تستطيع مياه المحيط ، والخليج ، أن تغسله عن رءوسهم !!.

وبقدر « العار » الذى سيظل — والى أبد الابدين — يلاحق « نمور شمعون » و « كتائب الجميل » ، سوف يكون « الشرف » .. وسوف يكون « المجد » اللـــذان سيظل اسم « تل الزعتر » — والى أبد الابدين — يسكبهما فى مسمع الدنيا .

ان « تل الزعتر » لم يسقط .. فقط ، نفدت من بين أيدى أبطاله كل مقومات الاستمرار : السلاح . والطعام والماء ، والدم . ومن ثم ، اقتحم « الكلاب » الابواب ، ولكن .. ليس هناك ثمة مجد أرفع .. ولا اروع .. من ذلك المجد الذى يكلل رءوس رجـــال يمــــوتون .. وهم وقوف .

لبنان والمصير الأسود !!

الحــريق فى لبنــان ما يزال مشتعلا .. وانهار الدم هناك مازال تنفجر من أجساد أشقاء الجبل الاخضــر بأيدى بعضهم البعض ، وبرصاص بعضهم البعض . ولا أحد قادر ـ حتى الان ـ على اطفاء الحريق ، ولا أحد قادر ـ حتى الان ـ على ايقاف أنهار الدم . وبدلا مــن أن يعمل الجميع ـ العرب جميعا ـ على انقاذ لبنان مــن المصير الاسود الذى تكاد كل المؤشرات تجمع على أنه ينحدر اليه فى سرعة مروعة ـ بدلا من أن يحدث ذلك ، راح اشقاء عرب آخرون يتهيأون ، فى المغــرب العربى للانقضاض على بعضهم البعض .. ولقتــل بعضــهم البعض !!.

ولقد اختار الاشقاء العرب ان يحدث هذا الاقتتال فيما بينهم ، فى الوقت الذى مايزال فيه العدو الحقيقى للعرب جميعا ـ من المحيط الى الخليج ـ كامنا بين جلودنا وعظامنا .. فاى خزى هذا الذى تلحقه الزعــــامات العربية بكل انسان عربى .. فى كل مكان من أرض العرب ؟!

اليس فى مقدور واحد من هؤلاء القـــادة العــرب الذين اخذوا يتهيأون لقتل بعضهم البعض ، ان يفطن الى أن كل رصاصة .. واية رصاصة .. تطلق فى اتجاه صدر أى انسان عربى ، أولى بها صدر آخر .. صدر عدو حقيقى يحمل من العداوة للعرب ، ومن كراهتهم ،

ومن التربص بهم ، والحقد عليهم .. ما لن تكفى فى غسله مياه المحيط ، والخليج ؟!!

انه أمر من البداهة بحيث ماكان يجب ان يغيب عن فطنة واحد من هؤلاء الزعماء .. وفيهم الاذكياء جدا .. « وفيهم المجربون جدا .. وفيهم من يستحيل القول بأنه لا يعرف الى صدر من — على وجه التحديد — ينبغى أن يسدد الرصاص !!

ثم :....

الى متى ستظل هذه الزعامات راضية بأن ينظر العالم الينا ، فلا يجد فى كل مايصدر عنا .. ويحدث منا .. الا كل مايثير ضحكه ، وسخريته ، وأيضا هزؤه ؟!!

نعم .. الى متى ؟!!

نكسات واصابتنا .. هزائم ولحقت بنا .. أرض وضاعت منا . كرامة ولحق بها ذات يوم — ليس ببعيد أبدا عن ذاكرة الجميع — هوان ليس بعده هوان !!

فأى شيء أكبر من ذلك تريده هذه الزعامات ان يحدث .. لكى تتوازن ، وتتعقل ، وتدرك اننا نتولى — نيابة عن أعدائنا — تدمير قوانا ، وتمزيق صفوفنا ، وكأننا موكلون من الشيطان بتخريب ديارنا ، وتحويلها الى اطلال تنعى من بناها ..

ثم ...

ياشعوب العرب جميعا .. اين انتم ؟!!

اين انتم لكى توقفوا كل هذه المآسى التى تجرى .. ولكى تقولوا لهذه الزعامات : كفى .. ؟!!

سبحان الله !!

بحان الله .. !!

ان حتما أن يقع على ارض « لبنان » كل ذلك الذى
، لكى يحدث هذا الذى حدث فى « قمة الرياض ».؟

ان حتما أن نغرق فى « حمامات الدم » حتى آذاننا،
يحدث هذا الذى حدث ..؟!!

كان حتما أن يستشهد منا الالاف ، ويتيتم الالاف ،
مل الالاف ، لكى يحدث هذا الذى حدث .؟!!

كان حتما أن يعم الدمار « لبنان » ويصبح الخراب
« سيد الموقف » هناك ، لكى يحدث هذا الذى
ث .. ؟!!

كان حتما ان تتطاير « الوحدة العربية » شظايا ،
يتخذنا العالمين هزؤا ، لكى يحدث هـــذا الذى
ث .. ؟!!

كان حتما أن تتفتت قوى « الثورة الفلسطينية » ،
تفقد من رجالها مافقدت ، وأن يتبدد من ســلاحها
د ، لكى يحدث هذا الذى حدث ..؟

ن حدوث ماحدث فى « قمة الرياض » ، اليوم ،
، له من معنى الا انه كان ممكنا أن يحدث من قبل ..
قبل ان يعم الخراب ، ويسود الدمار ، ويذهب
، والسلاح ، والرجال .. هباء منثورا !!

لماذا سكتنا حتى هذه اللحظة ..؟!!

لماذا سكتنا حتى أصبح عدد البيوت المدمرة في لبنان اكثر — بكثير — من عدد البيوت التى بقيت قائمة على اعوادها .. ؟!!

لماذا سكتنا حتى اصبح عدد الشهداء من جميع الاطراف المتقاتلة ، اكثر — بكثير — من عدد الاحياء كل هذه الاطراف ..؟

لماذا سكتنا حتى اصبح ذكرنا — نحن العرب لا يحرك عند « الآخرين » غير الشماتة .. والهزء والسخرية ..؟

لقد سكتنا ، للاسف الاليم ، وسكتنا .. وسكتنا لكننا دفعنا ثمن هذا « السكوت » أغلى مايكون الثمن دفعناه آلافا من الشهداء ، وأطنانا من السلاح ، وجـ من الاموال التى ماكان أحراها ان تصرف فى « بحـ الاخوة والمحبة » .. وليس في « بحر البغضاء » والعد والكراهية » .!!

انهم — وانتم تعرفون من أعنى « بأنهم » — يسلط على انفسنا ..

يستخدموننا ضد بعضنا البعض . يضعون أيد فوق الزناد ، ويتركوننا نطلق الرصاص على صدورنا

ولكن ...

لماذا .. ؟

لماذا نكون نحن من السذاجة أحيانا .. ومن الغـ احيانا .. ومن الجنون دائما .. فنتركهم يفعلون بـ مايريدون أن يفعلوا .. ؟!!

ثم ..

لماذا لا يتحرك « الراشدون » منا ، مثلما تحركوا الى « قمة الرياض » ، الا بعد أن تكون النار قد أكلت كل شيء .. والا بعد أن يكون الجسد العربي لم يبق فيه من الدم مايمكن أن ينزفه .. والا بعد أن تكون الكرامة العربية .. والسمعة العربية .. وحتى الانتصارات العربية ـ قد ذهبت اثراً بعد عين ؟!!

انا لا اعرف الجواب .. فهل يعرفه احد منكم .؟

عن :
الصحافة .. والصحفيين

الحرية التزام !!

تعرضت الصحافة المصرية .. وتعــرض الصــحفيون المصريون ــ اكثرهم على الاقل ــ لقدر كبير من اللوم ، ليس هناك من شك فى انها تستحقه ، ولا فى أنهــم يستحقونه .

صحيح انهم مارسوا « الحرية » بعد سنين طـويلة جدا من « الكبت » . لكن الصحيح أيضا أن « رد الفعل » لم يكن معقولا ، ولا مقبولا .!! فمحاولة الغاء عشرين سنة كاملة من تاريخ مصر ، الغاء شاملا كاملا .. شيء مستحيل ان يكون معقولا ، أو مقبولا .. ومحاولة اظهار مصر بانها قد تحولت ــ خلال تلك السنوات العشرين ــ الى مجموعة من الخرائب لاينقصها الا « البوم » ينعق على اطلالها .. شيء مستحيل كذلك ان يكون معقولا أو مقبولا !! لقد وجدها البعض فرصة متاحة لينفسوا ــ تحت ستار الحرية الصحفية التى أتيحت لهم ــ عن احقاد شخصية دفينة .. قديمة ، وجديدة .. وتقمص جميعهم شخصية « دون كيشوت » .. وشــــرعوا أسلحتهم .. ومضوا يقاتلون « طواحين الهواء » .!!

ولا احد ينكر ان ثورة ٢٣ يوليو ، وان « عبد الناصر » ــ شخصيا ــ قد خلفا وراءهما جرحى كثيرين . وربما اكون انا نفسى واحدا من هؤلاء الجرحى الذى خلفهـم « عبد الناصر » وراءه .. وربما يكون جرحى اعمــق بكثير من جراح غيرى .. لانني ــ على الاقل ــ كنــت

صديقه .. وكان بيننا ـ ولسنين عديدة«عيش وملح.» لكن التألم من الجراح شيء .. وملاحقة الرجل وثورته .. بالشتائم وبالسخائم .. وبتجريده من كل مواقفه ، ومن كل أمجاده .. شيء آخر تماما .

ليس هناك ـ بالتأكيد ـ ماهو اغلى من الحرية .. شريطة أن تمارس بانضباط ، وبمسئولية ، وقبل كل ذلك . بشرف .. أما اذا تجردنا ، فى ممارسة الحرية ، من كل هذه الضوابط .. فان الامر يتجاوز حـــدود الحرية ، ويتحول الى فوضى لا يستطيع أحد أن يصبر عليها ..

ليت القيادات الجديدة فى الصــحافة المصــرية ، تدرك هذه الحقيقة وتلزم نفسها بها .. حتى لا تصحوا يوما فتجد نفسها وقد خسرت اغلى مايمكن أن تنتعش ، من خلاله ، صحيفة .. وأغلى مايمكن أن يتنفس ، من خلاله ، قلم .

أجمل من الحقيقة .. الالتزام بها !!

في الصحافة .. كما في الاذاعة .. كما في كل وسائل الاعلام ــ هناك كثيرون محتاجون ، وبشدة ، لأن يتعلموا الموضوعية .. ولأن يلتزموا « الحقيقة » ــ لا يتجاوزونها ــ في كل حرف يكتبونه . وفي كل كلمة يقولونها . واذا نحن ــ صحفيون .. واذاعيون ــ أدخلنا في اعتبارنا ، عندما تكتب .. أو نتكلم ، أن للناس عقولا تعي .. وآذانا تسمع .. وعيونا تبصر ، وانهم ليسوا من الغفلة .. ولا من السذاجة . بحيث يجوز عليهم كل ماتكتب ، أو نقول .. لوفرنا على أنفسنا كثيرا من ذلك « التعب » الذى نبذله في سبيل تزييف الاشياء ، أو تضخيمها ، أو خلقها ــ خلقا ــ حيث لا يكون له ثمة وجود ألا في خيالاتنا !

وليس هناك ، في رأيي ، ماهو أخطر علينا ــ صحفيين .. واذاعيين ــ ولا أدعى لفقدان احترام الجماهير لنا ، من تزييف الاشياء أو تضخيمها .. ذلك لانه اذا فقد الناس ثقتهم بنا في حالة ما .. او في موقف ما .. فانهم لابد وان يفقدوا الثقة بنا في كل الحالات ، وفي كل المواقف ، بما فيها المواقف التى « قد » نلتزم فيها جانب الدقة في تقديم « الحقيقة » بلا تزييف ، ولا تضخيم ، ولا خلق من عدم .

ان الحقيقة جميلة .. ولكن ــ أجمل منها ، ولاشك ،

التزام منتهى الصدق فى تقديمها ، صحيح ان الطريق الى ذلك صعب .. ولكن أسهل الطرق ليس هو دائما أسلمها ، ولا أجلبها للاحترام .. احترامنا لانفســنا ، واحترام الآخرين لنا . واننا لنستطيع ان نخدع بعض الناس كل الوقت .. كما أننا نستطيع أن نخدع كل الناس بعض الوقت .. لكن المؤكد أننا لن نستطيع أن نخدع كل الناس .. كل الوقت ..

وتلك هى « الحقيقة الكبرى » التى يتحتم علينا - صحفيين .. واذاعيين - أن نضعها تحت عيوننا .. كلما وسوس لنا الشيطان ، او وسوست لنا انفسنا،ان نزيف .. أو نضخم .. أو نحدث الناس عن اشياء لا وجود لها الا فى خيالاتنا !!

الأقزام .. لايحس بهم أحد !!

في ســــنة ١٩٤٤ عندما عاد رجل فرنسا العظيم « شارل ديجول » الى باريس منتصرا ، بعد خمس سنوات من الهزيمة المرة ـ كان من أول الاشياء التى طلبها « ان تكون لفرنسا صحيفة عظيمة » .. فـكانت « صحيفة لوند » .

واليوم .. تدور فى باريس ، وفى عواصم أوربــا الغربية كلها ، معركة بالغة العنف ، حول « لوند » .. بعد أن اصدر واحد من محرريها السابقين البارزين كتابا عنها ، اتهمها فيه بالانحياز للعرب .. وباللاموضوعية ، وبالتعاطف مع « اليسار الفرنسى » .. وقهر الفـرنسى ايضا !!

وانقسم الناس داخل فرنسا .. وفى خارجها .. حول ماجاء فى كتاب محرر « لوند » السابق : فـريق معه . وفريق ضده . فريق يقول انه على حق . وفريق يقول انه يتجنى . و « لوند » نفسها تقول انه «كذاب» .. وتزداد المعركة سخونة .!

وأيا ماكانت نتيجة هذه المعركة .. فالشيء المؤكد ان « لوند » ـ كما قد عاشت قبلها ـ فانها سوف تعيش بعدها . صحيح انها قد تتأثر ، وقد ينالها بعض الشرر المتطاير من هنا أو من هناك . لكنها سوف تبقى .. تماما كما تبقى الشجرة الشامخة .. العميقة الجذور .. بعد ليلة عاصفة ، فالليل ، هنا ، يموت .. والعاصفة

ايضا تموت .. وتبقى الشجرة .. ويبقى شموخها .

وليس هناك دليل على عظمة « لموند » اكبر من ان يصدر حولها مثل ذلك الكتاب .. وان تثور حولها مثل هذه العاصفة . فالاقزام لا يحس بهم أحد ، ولا يتطاول عليهم أحد .. لانهم ـ بطبيعتهم ـ ليس لهم طول ، ومن ثم .. فلا مجال للتطاول .!!

لقد ثارت عواصف مشابهة ، تماما ، لهذه التى ثارت ضد « لموند » .. ضد الرجل العظيم الذى تمنى ذات يوم من سنة ١٩٤٤ ، أن تكون لفرنسا صحيفة عظيمة .. ومع ذلك ، لم تستطع هذه العواصف الهوجاء التى ثارت ضد « شارل ديجول » ان تنال منه شيئا .. وكما يتهمون « لموند » اليوم باللاموضوعية .. وبالانحياز .. وبأشياء أخرى كثيرة ، فقد اتهموا « ديجول » بالديكتاتورية ، وبعبادة الذات ، وبالاستعلاء على كل شخص ، وعلى كل شىء .. حتى على فرنسا نفسها !!. لكن هذه الاتهامات جميعها مالبثت حتى ماتت . لانها كانت تحمل ، فى ذاتها بذور موتها .. وعاش « شارل ديجول » .. وسيظل يعيش .. على الرغم من الحقيقة التى تؤكد انه قد مات !!

أشرفهم ـ وهو أحمد بهاء الدين ـ الا أن كفــاءة « بهاء الدين » ، وشرفه ، لم ينجحا فى أن يغطيا على « رائحة الحكومة » التى كانت تفوح من خلال صـفحات جريدة « الشعب » . ومن ثم ، ماتت الصحيفة قبل أن تحتفل « بالربيع الأول » من عمرها . !!

الا ليت الذين تأخذهم العزة بأموال الحـكومات وبسلطان الحكومات ، وبقدرة الحكومات على شراء آخر صيحات « المطابع » وآخر صيحات « الورق المصقول » ، وآخر صيحات « الكتاب » .. و « أشباه الـكتاب » الذين يبيعون أنفسهم فى « سوق النخاسة » ـ ليتهم يتفهمون هذه الحقيقة البسيطة جدا .. والأولية جدا .. والتى تؤكد ان « الصحافة الحقة » انما هى اتجاه ، ورأى ، وموقف . وانه لمستحيل استحالة دخول الجمل فى سم الخياط ، أن يكون لصـحيفة تصـنعها حكومة .. اتجاه ، أو رأى ، أو موقف .

ـحافة : اتجاه .. ورأى .. وموقف ..!!

لق صـــحافة تصــفق .. تهلل .. تردد ، بمناسبة
.بغير مناسبة : « يعيش .. يعيش .. يعيش » ،
يس هناك ماهو اسهل منه . لكن هذه يمكن أن تكون
، شيء » ، الا أنها صحافة . ذلك لان الصحافة الحقة
هي اتجاه ، ورأى ، وموقف . ومن هنا ، فانه مهما
، الحكومات .. ومهما أصدرت من صحف ملونة
ة الوان ، أو حتى بعشرة الوان .. ومهما اشترت من
، ، واشباه كتاب .. فانها لن تستطيع ، في نهـاية
، أن تصنع صحيفة يقرؤها الناس .. لانه يـكفي
، في رأى الناس ، أن تصدر الصحيفة عن جهـة
مية ما .. أو عن هيئة حكومية ما .. لكي يختصمها
لناس ، ولا يقرؤها أحد .. اللهم ـ طبعا ـ الا الذين
وها !!

لقد ولدت جريدة «الجمهورية» المصرية ، وهي تعاني
فس لحظة الميلاد ـ سكرات الموت ، لا لسبب ، الا
الناس كانوا يعرفون انها « جريدة الحكومة » ..
: في ثورة ٢٣ يوليو . ولقد سبقت جـــــريدة
جمهورية » الى الموت صحف كثيرة كانت ثورة يوليو
نشأتها . فماتت مجلة « التحرير » .. وماتت مجلة
ء الوطن » .. وماتت جريدة يومية اخـرى ، كان
ها « الشعب » . !! ومع أن الجريدة الاخيرة ، كان
ى تحريرها واحد من اكفأ الصحفيين العرب .. ومن

تقاليد صحفية !!

صديق مشغول بأمور الصحافة سالني :

ــ الا ترى انه من المهم اذا نقلت صحيفة عربيــة عن صحيفة عالمية موضوعا ما ، أن تذكر اسم الصحيفة التي نقلت عنها ؟ .

ــ ذلك جائز ، ولكنه ليس حتميا . وفرق كبير بين ماهو جائز وماهو حتمى .

ــ لكننى اتصور ان التقاليد الصحفية تحتم ذلك .

ــ لو أن ذلك حتمى ، كما تقول ، لالتزمته صــحف كبرى فى الشرق وفي الغرب ، ولكن هذا لا يحدث وعندى أكثر من مثل أستطيع ان أسوقه لك .

ــ ولكن صحفا كثيرة تفعله .

ــ هذا صحيح . غير أن صحفا كثيرة اخرى لاتفعله وربما يكون المسئولون عن الصحف التى لا تفعله اكثر عراقة فى خدمة الصحافة ، وفى العلم بأصولها وتقاليدها من المسئولين عن الصحف التى تفعله . انهــــا ــ في التحليل الاخير ــ قضية منهاج شخصى يختلف من صحف الى آخر ، وليست قضية تقاليد تفرض نفســــها على الجميع .. والصحافة ، كما تعلم ، مهنة بحورها واسعة ودروبها متعددة . فما تجيزه صحيفة « الديلى ميرور البريطانية لنفسها ، مثلا ، لايمكن أن تقبل به . صحيفة « التايمز » . وهى بريطانية ايضا . وماتجيزه ــ أ

ى آخر ــ صحيفة « فرانس ديمانش » الفرنســـية
سها ، ترفضه رفضا مطلقا صحيفة « الموند » . وهى
نسية كذلك . وربما نستطيع من خلال هذين المثلين .
ن غيرهما ــ وهو كثير ــ ان نقول ان هناك « تقاليد »
عها كل صحيفة لنفسها . لكننا لا نستطيع القول ان
اك « تقاليد » واحدة .. او موحدة .. تفرض نفسها
، كل الصحف ، وعلى كل الصحفيين . فهنـــاك
حيفة تعتمد « الموضوعية الصارمة » خطا لها . وهناك
رى تعتمد « الاثارة الفجة » خطا آخر .. وهـــذا
تقليد » . وذاك « تقليد » .. ولكن أيا من التقليدين
س الا مجرد اختيار شخصى من جانب المسئولين عن
ه الصحيفة ، أو تلك . الشىء الوحيد الذى لا يجوز
مطلقا ــ ان يكون محل اختيار شخصى ، هو الدين
، وهو الاخلاق .. وهو أمن ومقدسات المجتمع الذى
در فيه الصحيفة . وفيما خلا هنا الركائز الاساسية
ربع التى يحتم على كل صحفى ، وكل صـحيفة ،
ترامها .. بل وتقديسها .. فالصحافة حرة فى ان
ل ماتشاء .. ولكل صحيفة الحق المطلق فى أن تختار
سها الدرب الذى تسلكه ، دون ان يكون لاحد ــ غير
أنون ــ سلطان عليها .

الخير .. ليس خيرا !

مستحيل ..

مســــتحيل فى مهنتنـــا ان يعترف الفاشلون ، او القاصرون ، بفشلهم أو بقصورهم . بل لابد لهـــم من « شماعة » يعلقون عليها مسئولية هذا الفشل ، وذلك القصور . فاذا كانت « الادارة » حازمة ، ومنضبطة مع نفسها — قبل أن تكون منضبطة مع الآخرين — وتدير امورها وفق ايمان عنيد بالاســــــتقامة ، وبالامانة، وبالشرف .. فهى ، اذن — ومن وجهة نظــــر هؤلاء الفاشلين أو القاصرين — ادارة ديكتاتورية .. ومستبدة .. وظالمة !! كأن « العدل » هو ان نتيح الفـرص لمن يشاء ، لكى يعبث ، ولكى يلعب ، ولكى يأخذ الـكثير مقابل اقل القليل يقدمه ، او مقابل لا شيء على الاطلاق . فان انتَ أبيت على أولئك الفاشلين او القاصرين . ان يتخذوك « مطية » لهذا السلوك المشين .. فانت ظـالم وأنت مستبد ، وانت — قبل هذا وذاك — انسان لاتعرف « الانسانية » الطريق الى قلبك !! كأن « الانسانية هى ان تسرق .. او ان ترضى ، على الاقل ، بأن يسرق الآخرون !!

ولان « الخير » — صحفيا — ليس خيرا .. وانما « الشر » هو الخير ، فانك سرعان ماتجد العشرات وربما المئات ، الذين « يتبرعون » بترديد ما يشـــيعه الفاشلون عنك ، ويلصـــقونه بك ، دون أدنى جهـــا

يبدلونه في محاولة للتعرف على الحقيقة .. ولمـــاذا يجشمون أنفسهم مثل هذا الجهـــد .. مادام دور « الببغاوات » يكفيهم .. ولعله ، ايضا ، يسعدهم ، ويرضيهم . ؟!!

ولكن القضية — أولا .. واخيرا — هي قضية علاقة محددة بين المرء وربه .. بين المرء وضميره . أما الناس فانهم نادراً مايرضون .. بل هم مستحيل أن يرضوا عنك .. مادمت تأبى عليهم أن يجعلوا منك « جســـرا » يمرون عليه الى تطلعاتهم ، وشهواتهم ، ونزواتهم . !! وبمقاييس مثل هذا « الصنف » من الناس ، فان « عمر ابن عبد العزيز » كان ظالما .. لانه كان عادلا . كما أن « عمر بن الخطاب » كان أشد ظلما .. لانه كان اكثر عدلا ولعلهم — اقصد هذا الصنف من الناس — ينسون أن الله نفسه — وهو أعدل العادلين — ليس ثمـــة جزاء لديه .. الا من جنس العمل .

المهمة المستحيلة !!

الصحفي العربي : أى صحفي عربي – يحرص ، هذه الايام ، على « كلمة الحق » .. وعلى « شرف الكلمة » انما هو كمن يقبض على الجمر .. كمن يمشي عارى القدمين على أشواك كرءوس الحراب .. كمن يمخر عباب بحر رهيب بغير « بوصلة » . فما يمكن أن يرضى عنه الاشقاء فى سوريا ، لابد وان يغضب – وإلى حد السخط – الاشقاء فى العراق . والعكس صحيح تماما .. ومايمكن أن يرضى عنه الاشقاء فى كل من سوريا والعراق – ان كان ذلك متاحا ، أو ممكنا – لابد وأن يغضب الاشقاء فى مصر .. وما يمكن أن يرضى عنه الاشقاء فى المغرب ، لابد وان يستثير حفيظة الاشقاء فى الجزائر . والعكس هنا صحيح أيضا .!

وهكذا .. اصبح الكاتب الحريص على « كلمة الحق » .. وعلى « شرف الكلمة » كمن يسير على حبل رفيع .. وسط سيرك كبير .. يحرص على أن يقطع « مشواره » بنجاح .. ويخشى في ، نفس الوقت ، أن يسقط من فوق الحبل فيدق عنقه .!

مهمة صعبة .. بل هى ، بكل الصدق ، مهمة مستحيلة . ومن الممكن طبعا الا تكون كذلك .. وهى لكى لا تكون كذلك ، محتاجة الى « نوعية خاصة » من الناس .. محتاجة الى أناس « احترفوا » الكذب على انفسهم .. وعلى الآخرين .. أناس اغتالوا ضمائرهم .

بأيديهم .. ولم يترددوا فى أن يوأروها بتراب المصالـ .. والابهة .. والتنقل « بطائرآت خاصة » من دولة الى دولة .. ومن مكان آلى مكان .!!

ولكنهم لو علموا ماذا يقول عنهم أولئك الذين يدفعون لهم « ثمن كل هذه الابهة التى يتمتعون بها .. ويغرقون حتى الاذنين ، فيها .. وكيف ينظرون اليهم .. فربما ـ واقول « ربما » .. لان الطبع غلاب ـ كانوا يفضلون السفر من دولة الى دولة ليس « بطائرآت خاصة » .. وانما مشيا على الاقدام .. تفاديا لمشاعر « الاحتقار » التى يحملها لهم اولئك الذين يدفعون لهـــم « ثمن » تلك « الطائرات الخاصة » التى يتنقلون بها من عاصمة تدفع لهم كثيرا الى عاصمة تدفع لهم أكثر .!!

تقول الدراسات الصحية العالمية : « ان الصحفيين هم أقصر الناس عمراً .. واكثرهم تعرضا لذبحة الصدر .. وانفجارات المخ » . هذا ماتقوله الدراسات الصحية العالمية عن الصحفيين بشكل عام .. لكننى اعتقد ان هذه الدراسات لو تعمقت أكثر .. وأكثر .. لاكتشفت ان هؤلاء الذين يرحلون مبكرين بانفجـار فى المخ .. او بذبحة فى الصدر .. أنما هم صحفيون من نوع خاص .. صحفيون « نظفاء » .. كان لديهم ـ بالقطع ـ شرف .. وكان فى صدورهم ـ بالقطع ـ ضمير . ولم تكن لديهم ـ بالقطع ـ « طائرات خاصة » !!

كبش الفداء !!

ذكـرتنى الاجابات التى أجاب بهـا الرئيس التونسى .. الحبيب بورقيبة .. عن أسئلة الصحفيين فى المؤتمر الصحفى العالمى الذى عقده الرئيس التونسى ، بمناسبة الذكرى العشرين لاستقلال تونس — ذكـرتنى بذلك « الملحق الاعلامى » الذى كانت صحيفة « الاهرام » قد أصدرته عن تونس فى أعقاب هزيمة سنة ٦٧ .. ففى ذلك « الملحق الاعلامى » كان هناك حديث جرىء للزعيم التونسى عن تلك الهزيمة المفجعة ، ومقدماتها ، ونتائجها . وفى هذا الحديث نفسه ، كانت هناك فقرة تحدث فيها الحبيب بورقيبة عن مسئولية عبد الناصر شخصيا عن تلك الهزيمة . وفى تلك الفقرة قال الرئيس التونسى : « ان الزعيم الذى يقول انه كان ينتظر أعداءه من الشرق ، فاذا بهم يجيئون من الغرب .. لا يصح أن يكون زعيما ، ولا يصح أن يبقى فى مكانه لحظة واحدة » !!

ولم يكن عجيبا أن يقول الزعيم التونسى مثـل هـذا الكلام عن عبد الناصر . فلقد كان مابين الرجلين من صدام حاد فى الاراء ، والافكار ، والمواقف اشهر من أن يجهله أحد . لكن الذى كان عجيبا ، بل ومذهلا ، هو أن ينشر هذا الكلام فى صحيفة تصدر فى القاهرة .. وان تكون الصحيفة التى تنشره هى صحيفة « الاهرام » بالذات !!

وانتظر الناس بعد ان نشر هذا الكلام ، وقراوه . أنتظروا أن يعزل رئيس تحرير « الاهرام » من منصبه .

أو أن يوقف ، على الاقل ، من عمله .. مثلما حدث مع كثيرين لا تعتبر أخطاؤهم ، خطأ .. بالقياس الى هذا الخطأ الفادح الذى وقعت فيه عجوز الصحافة المصرية ، لكن شيئا مما توقعه الناس لم يحدث .. وحدث بدلا منه أن جرى البحث عن « كبش فداء » يمكن اعتباره مسئولا عما نشر ، ومن ثم ، يقدم قربانا لهذا الموقف .. ووقع الاختيار على « رقيب » الصحيفة ليـــكون هــو « كبش الفداء » المطلوب . فخصم له ١٥ يوما من راتبه ، وأبعد عن العمل فى مجال « الرقابة » على الصحف !!

ومضت سفينة « الاهرام » تمخر عباب البحر ... وكأن شيئا لم يحدث !!

الحقيقة .. لها يوم !!

كتب صـــاحبى كتـــابا خطيرا .. خطيرا .. ومع أنه لم يقل فيه شيئا غير الحقيقة ، او بعيدا عن الحقيقة .. ومع ان كل شيء ـ الى جانب الحقيقة ـ يصـــغر .. ويتضاءل ...ويصبح كعصفور صغير على قمة جبـــل شاهق ، الا ان ماكتبه صاحبى كان محتاجا ، لـــكى ينشر ، الى مناخ غير المناخ .. والى عقلية غير العقلية .. وربما ايضا الى عصر غير العصر .

ـ ولكن .. السـت تقر بأنه لا يتضمن شـــيئا غير الحقيقة . ؟

ـ هذا صحيح .. ولكن ذكر « الحقيقة » ، فى غير مناخها ، وفى غير اوانها ، يمكن أن يصبح ضربا من الجنون فالمشى فوق القمر هو ـ الان ـ « حقيقة » لا يأتيهـا الباطل من بين يديها ولا من خلفها . ولكن هـــــذه « الحقيقة » نفسها كانت كافية ـ فى عصر مضى ـ لان تذهب بمن يقول بها الى مستشفى المجانين .. تماما كما حدث ، من قبل ، مع « جاليليو » عندما كاشف قـومه بنظريته فى « كروية الارض » . لقد اعتبروه مخرفا ، بل ومجنونا ، وعذبوه ، وسجنوه ، وثلموا عينيه .. عقابا له على ماطلع به عليهم .!! ثم .. ثم دارت العصور، وأصبح ماكان « خرافة » و « جنونا » فى عصـــر « جاليليو » .. أصبح ـ هو الاخـــر ـ « حقيقـــة » لا يأتيها الباطل من يديها ولا من خلفها . وعندئذ هب

احفاد الذين اعتبروا « جاليليـــو » مخـــرفا بل ومجنونا ، وعذبوه ، وسجنوه — هبوا لتكريم اسمه ، واقاموا له التماثيل ، وراحوا يزهون به باعتباره واحدا من أعلامهم ، بل واحداً من أمجادهم .!! ولكن ذلك كله حدث ، بعد ان كان « جاليليو » نفسه قد مات « مثلوم العينين » بأيدى قومه .. لأنه صارحهم « بحقيقة » لم يكونوا — بحكم عقليتهم .. وبحكم المناخ الذى كـــان يحكمهم .. وبحكم العصر الذى كانوا يعيشونه — مهيأين للاستماع اليها .. فما بالك بالاقتناع بها .

— وما العمل اذ ن..؟

— ليس هناك من عمل الا « الصبر » .. ألا انتظـار « الغد » وما سوف يأتى به ، حتما ، من تغيرات فى العصر ، وفى المناخ ، وفى العقلية .. وعندئذ ، يصبح ماهو « مستحيل » ، اليوم ، قوله .. طبيعيا ومقبولا ، بل ومطلوبا ايضا .. اما قبل ذلك ، فانت لست نبيا .. كما انك لست رسولا .. ومن هنا ، فانك لن تستطيع أن تحتمل ان يقع عليك شيء مما وقع على الانبياء ، وعلى الرسل ، من اضطهاد .. ومن عذاب .. وتعذيب ، لانهم تلقوا الامر من « صاحب الامر » بأن يقودوا أقوامهـم الى النور .. وبأن يبددوا الظلمات .. كل الظلمات التى تغشى عقولهم ، وصدورهم ، وحياتهم .

شهيد الحرف .. والكلمة !!

كلنا سوف نموت ..

ولكن .. ليس هناك ، بالتأكيد ، ماهو أروع من ميتة يسقط فيها الانسان « شهيدا » فى ساحة الواجب .. مدفعه فى كتفه ، او قلمه بين أصابعه ..

وقد سقط شهيداً فى ساحة الواجب ، الكاتب .. الصحفى .. الزميل « ابراهيم عامر » .. قتله أولئك الاخساء جداً .. الضعفاء جداً . الذين لا يستطيعون مقاومة الحرف ، والكلمة ، الا بطلقات الرصاص .. وبالقنبلة والمدفع ، فلقد هجموا بقنابلهم ، وبمدافعهم ، على صحيفتى « المحرر » .. و « بيروت » .. وكان « ابراهيم عامر » ساعتها موجودا داخل الصحيفة الاخيرة .. يؤدى واجبه كما اعتاد دائما أن يؤديه .. بيسالة ، وبحب ، وبرغبة جياشة فى العطاء .. ليس كمثلها رغبة .

ولقد عرفت « ابراهيم عامر » ، أول ماعرفته ، على أرض جريدة « الجمهورية » حين ذهبت اليها فى سنة ١٩٦٤ ، رئيسا لمجلس ادارة المؤسسة . كان خارجا لتوه من المعتقل ، بعد ان قضى وراء أسواره خمس سنوات من أزهى سنوات عمره . ولكن هذه السنوات الخمس المريرة لم تستطع أن تعدو على ابتسامته ، ولا ان تطفىء شيئا من حماسته ، ولا من عشقه المشبوب للعمل .. وللحرف ، وللكلمة .

وكما أن الكفاءة لا تدعى .. فانها ايضا لا تدارى . صحيح ان الادعياء كثيرون . لكن القادرين على كشف الادعياء لا يزالون اكثر . ولم يكن « ابراهيم عامر » — شهادة لله ، وللحق — من أدعياء الكفاءة ، وانما كان كفاءة أصيلة .. كفاءة تستند — بجانب العشق المشبوب للحرف وللكلمة .. وللموهبة الاصيلة أصالة سبيكة من الذهب — الى تجربة صحفية عريضة ، لايقل عرضها عن خمس وعشرين سنة .. كان فيها عبارة عن « نحلة » .. لا تكل ، ولا تمل ، ولا تكف عن العطاء .

ولقد خرج « ابراهيم عامر » من مصر مهاجرا بقلمه ، بعد ان رفض الخضوع لقرار أصدرته « لجنة النظام بالاتحاد الاشتراكى » بتحويله — ومعه مايزيد على مائة ، كان فيهم نخبة من المع الصحفيين والكتاب — الى موظفين فى هيئة الاستعلامات .!!

رفض « ابراهيم عامر » الخضوع لهذا القرار .. وحمل سلاحه — قلمه — ومضى الى لبنان .. يمارس نفسه ، ويمارس دوره ، ويمارس طبيعته .. طبيعة « النحلة » التى لا تكل ، ولا تمل ، ولا تكف عن العطاء . حتى كان ذلك اليوم المشئوم الذى هاجم فيه صحيفة « بيروت » أولئك الضعفاء جدا .. الاخساء جدا .. الذين لايستطيعون مقاومة الحرف ، والكلمة .. بغير الرصاص والقنابل والمفرقعات .

فى ذلك اليوم المشئوم .. سقط « ابراهيم عامر » شهيدا . لكنه لم يمض من الحياة بلا وسام ، فقد اعتبرته الثورة الفلسطينية واحداً من شهدائها ..

وشيعت جنازته فى بيروت باعتبـاره واحدا من هؤلاء الشهداء .

فهل هناك ماهو أروع من أن يموت الصحفى وقلمه بين أصابعه ؟.. ثم حين تشيع جنازته ، تمشى وراءه فى هذه الجنازة ثورة بكاملها .. ثورة من أشرف الثورات ، واطهر الثورات ، واقرب الثورات الى الله .. لانها ثورة من أجل الارض ، والعرض ، والكرامة ، والشرف ؟..

الصحافة .. وقارب الاخلاق ..!!

في الرياض ــ سألني صحفي سعودي شاب لايزال يخطو خطواته الاولى على أول الدرب الطويل :

* مآهي ، من خلال تجربتك الطويلة في مهنتنا ، مقومات النجاح فيها ؟

اجبته :

ــ مقومات النجاح في هذه المهنة الشاقة جدا .. واللذيذة جدا في نفس الوقت .. أكثر من ان تعد . لكن أهمها ، من وجهة نظري .. ومن خلال تجربتي ، هو :

* اولا : ان تكون الصحافة هي عشقك الاول .. وعشقك الثاني .. وعشقك الثالث والاخير .. فالصحافة زوجة مستحيل ، استحالة مطلقة ، ان تقبل « بضرة » (*)

* ثانيا : ان تكون ، بالدرجة الاولى ، موهوبا ، فالموهبة في الصحافة هي الاساس . الشهادة الدراسية مهمة . لكن الموهبة أهم .. ذلك لانها تغني عن الشهادة ، وليس العكس صحيحا .. ويكفي هنا ان تعرف ان ايا من عمالقة الصحافة العرب لا يحمل مؤهلا عاليا في الصحافة .. وربما ولا في الاداب .

* ثالثا : ان تحرص على ان يظل عقلك يقظا اربعا وعشرين ساعة في الاربع والعشرين ساعة ، ففي

الصحافة ، مايفوتك عمله اليوم .. صعب جدا ، ان لم يكن مستحيلا ، تداركه غدا .

* رابعا : أن تؤمن بان الصحافة « انضباط » .. فهي ليست « فنا » بالمعنى التجريدى لكلمة فن . وانما هى « فن » مرتبط — اساسا — بدوران ماكينات الطباعة .. وبدوران أجهزة « التيكر » .. وبدوران محركات الطائرات التى تحملها الى قرائها فى كل مكان . ومن هنا ، فلا شيء فيها يقبل بالتراخى ، ولا بالتكاسل ، ولا بالتاجيل الى الغد .. ولا الى الساعة التالية .

* خامسا : ان تؤمن بأن الصحافة اخلاق أولا .. واخلاق ثانيا .. واخلاق ثالثا واخيرا .. وليس مهما — مطلقا — ان تكون صحفيا يخافه الناس . ولكن ، مهم جدا ان تكون صحفيا يحترمه الناس ، ومهما يكن من أمر النماذج الشوهاء التى قد تعرفها ، أو تشهدها متناقضة مع هذه الحقيقة ، فعليك أن تمض — وبالنواجذ — على ايمانك « بانه لا يصح الا الصحيح .. ولن يبقى الا الاصح » .

* سادسا : أن تحترم نفسك .. وان تحترم قلمك .. وان تحترم كل كلمة يخطها هذا القلم ، ثم خض بعد ذلك البحر وأنت واثق من انه مهما ارتفع الموج من حولك .. فانه لا يستطيع ان يغرقك . قد يرتفع الموج فيغطي وجهك .. وقد يرتفع اكثر فيغطى رأسك . لكنه — وبالتأكيد — لن يغرقك . فليس هناك « قارب نجاة » تخوض به فى هذا البحر اللجى ، اقوى ولا امتن .. ولا اقدر على مغالبة الامواج ، مهما كانت هوجاء وعالية .. من « قارب الاخلاق » .

صحف حرة ..
ام قصاصات ورق ؟!!

سعدت صحف عربية ـ لا اسميها ـ باغلاق الصحف فى الكويت . واقامت الافراح على ماتم « الوطن » و « الهدف » و « الطليعة » و « الرائد » . ولم يكن هذا موقفا غريبا من صحافة هي ـ أصلا ـ مغلقة ، يعين فيها الكتاب بقرارات .. ملكية او جمهورية !!

ولكن الغريب هو ان يغالط الصحفيون انفسهم ، فيصورون لقرائهم « المساكين » ان اغلاق صحيفة هو قمة الديمقراطية .. وأن الارهاب هو العدل ، وان كل ما يأتي به الحكام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. وليس على الصحف الا ان تؤيد الصحف ، وتبرر وتبارك .

ان صحف الكويت ، قد تخطيء . وهنا لابد من محاسبتها . وقد « تقبض » بعض الصحف من « بعض » الجهات ، وهنا لابد من معاقبتها .. ولكن ، بالقانون ، وليس بالبطش .. بالادلة وليس بالشبهات !!

ولم أكن أتصور ان يمسك كاتب بقلمه ، ليلعن الاقلام الاخرى ، ويبارك قصفها ، ويحرض على مزيد من قصف الاقلام .. لكن أشياء كثيرة فى هذا الزمان الرديء لم تعد مفهومة ، اذ اختلط الحق بالباطل ، ودخل الاحرار السجون ، بينما بقى اللصوص خارج الاسوار !

واذا كانت الاتهامات تنهال فوق رأس الصحف

« المعطلة » فى الكويت ، فان لهذه الصحف أن تفخر بأنها قالت رأيها ، وسجلت للتاريخ كلمتها .. وكان ذلك فى أدب وموضوعية .. ولهذا فان تعطيل الصحف فى الكويت لم يكن لجريمة ارتكبتها ، وانما كان لمجرد انها فتحت فمها ، ولكى تكون عبرة لغيرها .!

أما باقى صحف الكويت فليتها سكتت ، واستسلمت .. وليتها اكتفت بنشر « القرارات الاميرية » دون تعقيب .. ولكنها ، للأسف الشديد ، راحت تتبارى فى أمتهان نفسها ، وفى صب اللعنات فوق رأسها ، وفى التدليل على انها – كما يقولون – « صحافة مرتشية » تستحق أكثر مما حدث !!

ويقول العدد الاخير من جريدة « الهدف » عن تعطيل « الوطن » اليومية و « الطليعة الاسبوعية » : « ان مبدأ حرية الصحافة حيوى وهام ، والمحافظة عليه هى تأكيد لسلامة العلاقة القائمة بين الحكام والمحكومين .. وهى دليل على أننا نستطيع استيعاب النقد والاستفادة منه . ولا ريب أن التشكيك بكل صوت يرتفع ليناقش القضايا الاساسية من حرية المواطن الى ديمقراطية الشعب ، هو فى غير مصلحة الكويت العليا ..

« نحن نريد لكل مواطن ان يقول رأيه ، لان حل المشكلات لا يجب ان يكون بالصمت والهمس الخافت ، بل يجب ان يتم عبر النقاش بصوت مرتفع ومسموع دائما .. لان الصمت والهمس يصل بنا الى نتيجة ضارة بالديمقراطية والحريات » .

« ونحن لا نريد لصحافتنا حرية غير مسئولة ، ولكننا لا نريد لها – فى نفس الوقت – أن تتحول الى قصاصات

ورق : يضطهد فيها الخبر ويبتعد عنها الرأي » .

ومن أجل هذه الكلمات أغلقت « الهدف » : لمدة ٣ شهور . !!

***

. أما « محمد مساعد الصالح » : رئيس تحرير « الوطن » و « الهدف » ، فقد كان في فندقه بمدينة « جنيف » ، عندما رأى صورة أمير الكويت على شاشة التلفزيون السويسري ، ثم كلاما لم يفهم منه شيئا ، ولكنه أيقن بأنه لابد وان يكون خبرا مهما من بلده « الكويت » .

واتضح أن هذا الخبر ، هو ما أدى الى اغلاق صحيفته ! .

وعاد رئيس التحرير الى الوطن ، ليقول : « كنت اتوقع من اخواني واحبائي رؤساء تحرير الصحف القيام بالحد الادنى من الواجب .. تليفون مواساة ومشاركة ، ولا اريد ان أقول دعوة للكتابة في صحفهم .. كما لااريد أن اقول كتابة كلمة تحمل معنى المشاركة المهنية للتعطيل .. ولكن أحبائي وأخواني رؤساء التحرير شاءوا مخالفة روح الاسرة التي سمعنا عنها كثيرا ، وعن وقوف الصديق مع صديقه في الملمات والمشاكل ، وهو خلق الكويتيين ، وعاداتهم ، كما قرانا كثيرا في الصحف .. أقول — فضل — الزملاء السكوت على المشاركة الهاتفية التي من المؤكد انها لم تكن لتصل الى المسئولين ، اذا كانوا خائفين !!

« واحد فقط كان وفيا .. وكان يمارس الاخلاق العربية والعادات الكويتية الصحيحة ، هو الزميل

« سامى المنيسى » . لك منى ألف شكر وتقدير ..
و « هاردلك » للطليعة » .

ولست أدرى كيف كان يتوقع « محمد مساعد الصالح » ان يقف معه زملاؤه واحباؤه رؤساء التحرير ، الذين لم يستطيعوا أن يقفوا — حتى — ولا مع أنفسهم ! !

عن :
الفن .. والفنان

واحد من «جيل الرواد» .. يتكلم !!

عبد الحميد الحـديدى .. واحد من عمالقة « جيل الرواد » فى الاذاعات العربية . بدأ حياته ، من اربعين سنة مضت ، مذيعا .. واخذ يترقى فى سلم هذا الفن الاعلامى الخطير ، درجة .. درجة ، حتى بلغ قمته .. بجلوسه على كرسى « مدير عام الاذاعة المصرية » . ولم يصل عبد الحميد الحديدى الى هذه « القمة » عدوا ، ولم يصل اليها قفزا . ولم يصل اليها والساحة أمامـه مقفرة .. تريد رجلا ، اى رجل ، حتى ولو كان عاطلا من كل موهبة ، ومن كل كفاءة ، ومن كل قدرة على العطاء . وانما بلغ عبد الحميد الحديدى مابلغه ، وسط زحـام شديد من ذوى الكفاءات ، والمواهب ، والقدرات الفذة على العطاء .

ولعل اكبر عيوب عبد الحميد الحديدى ، فى نظـر البعض ، هى نفسها اكبر مزاياه : فهو حازم . وهـو حاسم . وهو قادر ، فى اى وقت .. وفى كل وقت ، على أن يقول للاعور فى عينه : « انت اعور » . ومـن اجل هذا ، كان هناك كثيرون يكرهونه .. ولكن الجميع ـ بمـــا فيهم هؤلاء الذين يكرهونه ـ كانوا يقدرونه ، ويحترمونه ، ويحسـبون له ألف حساب .

وفى حوار مع مجلة « روزاليوسف » ، موضـوعه « انحدار مستوى المذيعين والمذيعات فى الاذاعـــة والتليفزيون » ، قال هذا العملاق من جيـل الرواد ،

موضحا اسباب هذا الانحدار :

« .. فيما مضى ، كانت لجان الاختبار لا تقبل لمهنة « المذيع » . الا من يصلح لها ثقافة ، وفكرا ، وصوتا ، واداء . كانت لجانا متشددة بحق ، ثم صارت متهاونة . من غير حق . كان المذيعون ، فيما مضى ، نجوما في المجتمع بثقافتهم ، وبشخصياتهم المتميزة .. بولائهم لمهنتهم والحرص الشديد على التجويد فيها . ثم تغير ذلك كله . لم يعد الولاء للمهنة هو الذى يهم ، ولا هو القياس للتقدم ؛ بل صار الولاء للمديرين ، ولتــابعي المديرين ، ولمن يحمى ظهر المديرين .. كما أن معيار رضاء هؤلاء الرؤساء لم يعد ــ كما كان فيما مضى ــ هو الحرص على المهنة ، والتفوق فيها .. بل أصبح المعيار هو مجرد « التبعية » لهم والولاء لاشخاصهم . فمثلا : هل هو ، أو هى ، ممن يجيدون التزلف ، ونقل اخبار الخصوم والشلل المنافسة .. ام لا ؟ وهذا اختبار بالغ الاهمية .!! ومن كثرة الناجحين فيه ، صرنا نسمع في الاذاعة .. ونرى فى التلفزيون .. تلك الاصوات المسطحة ، والوجوه المسطحة التى لايعنيها أن تتثقف ، ولا أن تجود فنها ، بقدر مايعنيها مناورات ارضاء المديرين .. فاذا ماظهر مذيع جديد له شخصية ، ويبشر عمله بالامل فى المستقبل « وهذا المذيع ، فى الغالب ، يكون له من الكرامة مايمنعه من التملق .. واللجوء الى « ظهر يحميه » ، فما أسرع مايطرد من جنة الاذاعة والتلفزيون .. قبر ماسوف عليه ..!! وما أسرع مايختلق الاسباب ــ وهذا اهون الاضرار ــ التى تكتب عليه الا

يتقدم فى موقعه ، وان يبقى — الى ماشاء الله — فى الظل !! » .

***

انتهى كلام هذا العملاق من جيل الرواد فى الاذاعات العربية . فهل تقتصر « العاهات » ألتى « شخصها » — كاسباب مباشرة لانحدار مستوى المذيعين والمذيعات — على اذاعة ، وتلفزيون مصر وحدها .. ام ان هذه « العاهات » نفسها ، موجودة — نتيجة لتلك الاسباب ولغيرها .. وبصورة أو باخرى — فى كل آذاعة عربية .. وفى كل تلفزيون عربى ؟.

أن الاصوات المسطحة ، والوجوه المسطحة ، التى نسمعها ونراها فى كل هذه الاذاعات والتلفزيونات .. تصرخ باعلى الصوت : « انها ليست « عاهات مصرية وحسب .. وانما هى ، للاسف الشديد ، « عاهات عربية » .. تكاد تعم كل الاذاعات العربية ، وكل التلفزيونات العربية .. ومع ذلك ، فلا أحد يريد أن يقاوم .. ولا أحد يريد أن يصحح .. ولا احد قادر ، فيما ارى ، على أن يخلصنا من هذه « العاهات » .

الصراع على عرش أم كلثوم !!

الصراع على عرش أم كلثوم ــ قبل ان يمضي اكثر من اربعين يوما على غيابها ــ احتــدم اواره ، وتعــالت اصواته . !!

ولعل أسخف مافى هذا الصراع الذى دار بين أكثر من فنانة ، انه صراع بالكلمات !!. ولانه « صــراع بالكلمات » فسوف ينتهي ــ بالقطع ــ الي لا شيء . ذلك أن العروش ــ اية عروش .. أدبية كانت أو فنية ــ لاتورث بالكلمات .. وانما تورث هذه العروش بالذات ، بالتعب ، وبالعــرق ، وبالاعــداد النفسى .. والفني القاسيين .. وقبل هذا كله ، بالموهبة الحقيقية التي تؤهل صاحبها للطمع فى وراثة العرش : عرش الادب .. او عرش الفن .

فام كلثوم ، حين ورثت عرش « سلطانة الطرب . منيرة المهدية » ، لم ترثه بمجــرد الـكلمات .. ولا بمجــرد الادعاء بانها قادرة على وراثة ذلك العرش. وانما استطاعت « أم كلثوم » .. الفلاحة البسيطة .. والذكية والعظيمة فى ذات الوقت ، أن تقتلع « سلطانة الطرب » من فوق عرشها بالتعب .. وبالعرق .. وبالعمل المضنى الذى اكد أصالتها ، واكد موهبتها ، واكد احقيتها فى اعتلاء العرش .. بينما كانت « سلطانة الطرب » نفسها ماتزال على قيد الحياة .. لم تفارقها !!

ان كثيرات من المتصارعات ــ بالكلمات ــ على عــرش

أم كلثوم .. لا يعرفن ، حتى الان ، كيف يختزن كلمات أغانيهن .. انهن يغنين اى كلام يقدمه لهن أى « بائع كلام » .. ولعلهن يفضلن « الارخص » !! وفي الوقت الذى يفعلن فيه المتصارعات ــ بالكلمات ــ هذا ، كانت « ام كلثوم » تتوقف كثيرا عند كلمة .. او عند جملة .. لواحد من اعظم الشعراء ، لانها اكتشفت ، بحسها الفنى الذى لا يبارى ، ان هذه الكلمة .. أو الجملة .. غير قابلة للغناء ، فتتقدم على تغييرها بشجاعة .. وأيضـــا بذوق لا يجاريها فيهما أحد !!

لقد فعلت « أم كلثوم » ذلك مع كلمات لشوقى .. وفعلته مع كلمات لعمر الخيام .. وفعلته مع كلمـات لاحمد رامى . وكانت « ام كلثوم » دائما على حق .

واخيرا .. فسهل جدا أن يدعى أى انسان ــ خاصة اذا كان ممن يجيدون فن الحرب بالكلمات ــ « احقيته » فى وراثة أى عرش . ولكن ــ صـعب جـدا ان يثبت « جدارته » بوراثة ذلك العرش . فما بالك والعـرش هنا .. هو « عرش أم كلثوم » ؟!

ان المتصارعات ــ بالكلمات ــ على « عرش ام كلثوم » يذكرنى بمجموعة من « الغربان » تحاول بالنعيق .. وبالمزيد من النعيق .. أن تحتل مكانة « البلبل » .!!

فهل ذلك ممكن .. ؟ !!

فيروز فى ألقاهرة !!

اخيرا .. ذهبت « فيروز » الى القاهرة لتغنى فيها . وذهاب « فيروز » الى القاهرة مكسب لفيروز ، بقدر ماهو مكسب للقاهرة .. فلم يكن معقولا ، ولا مقبولا الا تلتقى « عاصمة الفن العربى » بصاحبة الصوت الملائكي الا من خلال تسجيلاتها . كذلك لم يكن معقولا ، ولا مقبولا أن تسجن صاحبة الصوت الملائكي نفسها وراء أسوار لبنان ، فلا تتركها — اذا تركتها — الا الى امريكا .. أو كندا .!!

ان « فيروز » — بالاساس — حنجرة عربية ذهبية .. وهى صوت ، اقل مايقال فيه ، انه هابط من السماء .. والقاهرة هى عاصمة العرب جميعا . وذهاب «فيروز» اليها كان فى الصيف ، حيث يتجمع الاشقاء العرب من كل حدب ، وصوب . فاللقاء ، أذن ، لقاء مع العرب جميعا بين أحضان القاهرة .. عاصمة العرب جميعا .

وفيروز ليست « غانية » تغنى بجسدها . كما انها ليست « عارضة أزياء » تغنى بفستانيها . وانما « فيروز » صوت .. صوت معبق بالحب ، وبالسحر ، وبالخيال .. صوت يحملنا على الف جناح الى عالم بعيد .. الى صخرة خضراء يتدفق منها نبع رقراق .. فنغتسل ونتطهر ونفيق .. ونلملم ، من جديد ، اشتات انفسنا التى ضاعت منا مع لظى الحياة .. أو ضيعها لظى الحياة منا .

ان الرحلة « الفيروزية » الى القاهرة ، شيء كان يجب أن يتم من زمن بعيد . كان يجب أن يتم و « ام كلثوم » ماتزال متربعة فوق قمتها ، حتى لا يتقول المتقولون على صاحبة الصوت الملائكى بأنها جاءت الى القاهرة فى محاولة لاعتلاء « القمة » التى خلت من صاحبتها .!

ولكن ... لا ضير على « فيروز » من مثـــل هـــذه التقولات . فمن كان له سحر صوتها ، وعبقه ، وقدرته على التحليق بنا بألف جناح .. ليس طبيعيا أن يسلم من تقولات المتقولين . المهم هو أن تعرف « فيروز » كيف تحمي نفسها من أن « تجر » الى ذلك الصراع الدائر بالاظافر .. وبالانياب .. وبوسائل كثيرة أخرى ، غير الاظافر والانياب ، حول « القمة » التى خلت من صاحبتها .. من « أم كلثوم » .

ان « فيروز » سوف تذهب مرات .. ومرات الى القاهرة .. وهى صوت معبق بالحب ، وبالســـحر ، وبالخيال .. ولن يضيرها فى شيء ان يقول المتقــولون عليها بأنهم اكتشفوا انها « مجرد ملاك يغني » .. وأنها بلا اظافر .. ولا انياب !!

تمثال من الذهب .. لأم كلثوم !!

نحن العرب عاطفيون جدا .. عاطفيون الى الحد الذى يجرنا ، ونحن ندرى .. أو لاندرى ، الى الوقوع فى كثير من الشطط . من هذا الشطط الذى توقعنا فيه عواطفنا اقتراح قرأته فى احدى صحفنا .. تقدم به واحد من قرائها يحمل درجة « الدكتوراه » باقامة تمثال .. من الذهب .. لام كلثوم !!

وام كلثوم فنانة عظيمة مافى ذلك شك .. وهى جزء من أحزان العرب ، وافراحهم ، وذكرياتهم ، مافى ذلك شك ايضا . وتكريم ذكرى أم كلثوم — من هذه المنطلقات جميعاً — حق لها ، وواجب علينا . ولكن .. ان تصل بنا الرغبة فى تكريم ذكراها الى حد ان يتقدم مثقف يحمل درجة « الدكتوراه » باقتراح أن يقام لها « تمثال من الذهب » .. فهذا هو الشطط الذى ليس بعده شطط !!.

ولو أن هذا المثقف « الدكتور » كان قد احتكم الى عقله — قبل عواطفه — فيما ينبغى أن يفعل لتكريم ذكرى ام كلثوم ، لما سمح لنفسه بأن يقترح اقتراحا كهذا الذى اقترحه لتكريمها . أولا : لانه اقتراح متسم بالاغراق فى « العاطفة » .. وثانيا : لانه بعيد كل البعد عن « الموضوعية » التى يفترض فى « دكتور » مثله أن يلتزمها .. وان لا يقيم الناس الا فى ضوئها ، ومن خلالها .

قام كلثوم ــ كما اتفقنا ــ قمة فى فنها قد لا يجود علينا الزمان بمثلها . وهى ــ كما اتفقنا ايضا ــ جزء من احزان العرب ، وافراحهم ، وذكرياتهم . ولكنها ــ فى التحليل الاخير ــ ليست « جان دارك » .. وليست « غاندى » .. وليست « ديجول » .. وليست « ماوتسى تونج » .. واذا كانت الامم التى ايقظها هؤلاء الزعمـاء من رقاد ، واحيوها من عدم ، لم تفكر فى ان تقيم لهم تماثيل من ذهب ، ولا حتى من فضة .. ولا من نحاس .. فكيف نفكر نحن أو بعضنا ، أو واحد منا ، بأن يطالب باقامة تمثال من ذهب لام كلثوم ؟!.

انها « العاطفة » كما قدمت .. وانه « الشطط » الذى تجر اليه « العاطفة » ، وليس فى مجال تــكريم البارزين منا فحسب ، بل فى سائر المجالات .. ولو أننا أعتمدنا « الموضوعية » فى كل مانحس ، ونقول ، ونقرر، لما وقعنا فى ذلك «الشطط» الذى كثيرا ما جعلنا سخرية الساخرين .. ولهم الحق فى أن يسخروا منا ماشاءت لهم السخرية ــ ماداموا يرون « دكتورا مصريا » ــ ووسط الظروف الممعنة فى القسوة التى تمر بها مصر ــ لا يتردد فى أن يقترح اقامة تمثال من الذهب لام كلثوم .. وكأن مصر ، قد صار لديها من الذهب مالا تعرف ماذا تصنع به !؛ واذن .. فما المانع من أن تقيم منــه تمثالا لام كلثوم ؟!!

هدية ابنتى !!

أهدتنى ابنتى هديتين : احداهمـا من السـماء ، والاخرى من الارض . الاولى كانت لوحة جميلة تتوسطها كلمة : « الله » .. وتدور حولها « آية الـكرسي » . والقرآن ـ اية سورة منه .. واى جزء من « سورة » .. واية « آية » ـ انما هو دواء ، وشفاء ، وأروع واحـة خضراء يمكن أن يهرع اليها الانسان المسلم ، كلما أراد ان يهرب للحظات .. أو لساعات .. أو دائما .. من نيران الدنيا المحرقة .

وليس يستطيع أن يحس بذلك كله ، أو بشيء منه .. الا أولئك الذين يهدى الله قلوبهم ، فيتذكرون القرآن ، ويتدبرون القرآن ، ويتأملون القرآن .. يتأملونه مبنى ، ويتأملونه معنى ، ويتأملونه قصصا ، وموسيقى ،وكلمات .. لو كان البحر مدادا لها ، لنفد البحر ولم تنفد كلمات ربى . ومصيبتنا نحن المسلمين ـ او الـكثر الـكثيرة منا ـ اننا نلجأ الى « الفاليوم » لكى نهدأ .. ونلجأ الى « الليبريوم » ننشد عنده الراحة لاعصابنا التى تسحقها الحياة اليومية بمطارقها القاسية .. نلجأ الى هذا ، والى ذاك .. بوعى او بلا وعى ، ولا نلجأ الى القرآن .. على الرغم من انه أسهل ، وعلى الرغم من انه اقـرب ، وعلى الرغم من انه اقدر ـ ولا قدرة تستطيع ان تطاول قدرته ـ على شفاء مافى الصدور ..

***

اما الهدية الثانية التي أهدتني اياها ابنتي .. فكانت تسجيلا كاملا لموسيقى الاخوين « رحباني » . ولا أدرى كيف يمكن أن يكون شكل الدنيا بلا موسيقى ؟!

لاشك فى أنها كانت ستصبح قبيحة جدا ، وجافة جدا ، وحارقة جدا . فالموسيقى ـ فى دنيانا القبيحة هذه ـ هى ذلك الطائر الجميل الذى يحملنا على أجنحته الخضراء ، ويحلق بنا بعيداً .. بعيداً جداً .. عن قبح الدنيا ، وجفافها وحرقتها !

ولئن كانت الموسيقى ـ كلها ـ شيئا رائعا ، ورقيقا ، وجميلا . فلاشك أن « موسيقى الرحبانية » صنف من الموسيقى متفرد بمذاقه ، وبرقته ، وبجماله . انها بستان من الياسمين ، بكل شذاه وبكل رقته .. منتظم فى عقد من النغم يغسل قلبك ، ويغسل نفسك ، ويجعلك تحس وكأنك تستحم فى جدول حب ، أو فى بحيرة ندى !.

ان أبنتى حين اختارت لى آية من القرآن .. هدية من السماء ، فانها كانت تعرف اباها .. تعرف حاجته العقلية ، والنفسية الى القرآن .. وعظمته .. وجلاله: مبنى ، ومعنى ، ودروسا تجعلك تثق بنفسك .. وبيومك وبغدك ، فلا قلق ولا خوف ، ولا ارتياع من شىء .. ولا قلق على شىء .

وهى ، حين اختارت لى « موسيقى الرحبانية » .. هدية من الارض ، فانها أيضا كانت تعرف أباها .. تعرف حاجته الى هذا البستان من الياسمين الذى انتظم نغما .. يجعلك تحس ، وانت تستمع اليه ، وكأنك تستحم فى جدول حب .. او فى بحيرة ندى .

الفنان والقناع !!

فى الفن كما فى السياسة .. الفنانون — معظمهم على الاقل — يرتدون « اقنعة » يتسترون وراءها ، ويتعاملون مع الناس والحياة من خلالها ، وكما أن كل شيء فى « بحر السياسة » جائز ، فان كل شيء فى « بحر الفن » وعند الفنانين — معظمهم على الاقل — جائز أيضا . فالابتسامة يمكن ان تكون عريضة ... والاحضان يمكن أن تكون واسعة .. والسؤال عن « الصحة .. وعن الاحوال » يمكن ان يكون ملحا ، وساخنا ، ومتواليا . لكن ذلك كله عند الفنانين—معظمهم على الاقل — كما هو عند رجال السياسة ، ليس من الضرورى أن يكون مخلصا ، ولا صادقا ، ولا نابعا من القلب !! وانما هى « بضاعة للاستهلاك الوقتى » .. لمقتضيات الظروف والاحوال والمواقف !!

ومع أن « الفن » ، فى أدق تعريف له ، هو : « الصدق » .. ألصدق قولا ، والصدق عملا ، والصدق سلوكا . فان كثيرا من الفنانين — وقد عرفت منهم عديدين .. فيهم الكبير ، وفيهم الصغير .. فيهم الملك ، وفيهم الصعلوك — ليسوا ، للاسف الشديد ، بصادقين .. لا مع الناس ، ولا مع انفسهم ، ولا مع فنونهم !!

ولكن ... الى جانب الكثرة الكثيرة من الفنانين المزيفين ، توجد بلا شك قلة قليلة من الفنانين الحقيقيين .. الصادقين مع الناس ، ومع انفسهم ، ومع فنونهم .

فلقد كان « شوبان » ، مثلا ، فنانا حقيقيا . ولانه كان فنانا حقيقيا ، فقد رفض أن يعود الى بلده ـ بولونيا ـ طالما ظل ترابها اسيرا للاحتلال الاجنبى . لكنه لم يهرب من المعركة . بل عاش فى قلبها تماما . ظل يعزف من أجل بولونيا ، ويذكر الناس بها ، ويكسب لها ـ مع كل معزوفة يعزفها ـ صديقا جديدا ، ونصيرا جديدا .

وكان « بتهوفن » ، مثلا ، فنانا حقيقيا .. ولانه كان فنانا حقيقيا ، فقد رفض أن يلتزم جانب الطريق حتى يمر « امبراطور المانيا » الذى كان يستضيفه فى قصره !! وبينما التزم « جوته » الذى كان برفقتـــه فى تلك اللحظة ، جانب الطريق حتى يمر « الامبراطور » .. فقد رفض « بتهوفن » ان يفعل مافعله « جوته » !

كان « بتهوفن » يرى نفسه أكبر من امبراطور المانيا .. وبما انه أكبر من « الامبراطور » . فكيف يلتزم جانب الطريق لكى يدعه يمر !!

ولم يكن « بتهوفن » مغرورا حين فعل ذلك .. بل كان « صادقا » مع نفسه ، الى أبعد حدود الصدق ، فى تقييم نفسه .. والدليل : ان أحدا من الناس لا يكاد يعرف من هو « الامبراطور » الذى حدثت معه هـــذه الحادثة .. ولكن أحدا ، فى الدنيا كلها ، لايجهل من هو « بتهوفن » .

لقد مات « الامبراطور » .. وجار الزمن على اسمه ، ورسمه .. بينما لم يستطع الزمن أن يدفن من «بتهوفن» الا جسده .. اما أسمه ، وأما رسمه، فقد كانا، ولايزالان ـ وسيظلان ـ اقوى من الموت ، ومن الزمن ، ومن ذلك « الامبراطور » الذى لايعرف أحد اسمه . !!

عندما يبالغ الشعراء !!

نزار قباني .. شاعر عربي عظيم .. ينثر الشعر زهرا له لون وطعم ورائحة . ولكن .. ان يقول « نزار قباني » انه استطاع ــ بشعره ــ ان يغير ملامح الشعب العربي .. فالي هنا ، ونختلف . ذلك لان الشابت ان شيئا من « ملامح الشعب العربي » ــ قبل ان يقول « نزار » الشعر .. وبعد ان قاله .. والى هذه اللحظة ــ لم يصبه ادنى تغيير . ان كل شيء ــ وهذا محزن واليم ــ ثابت في مكانه . فالصراعات هي هي .. والاثرة هي هي .. والاحقاد هي هي .. والاطماع هي هي .. و .. ولا جديد تحت الشمس !

ولو قال « نزار » انه « استطاع ــ بشعره ــ ان يسعد الناس » .. لكان صادقا . ولو قال « انه استطاع ــ بشعره ــ أن يطرب الناس » .. لكان صادقا . ولو قال أنه « استطاع ــ بشعره ــ ان يجعل الذين لم يكونوا يطيقون الشعر ، يسمعونه .. بل ويعشقونه » .. لكان، أيضا ، صادقا .اما ان يقول انه « استطاع ــ بشعره ــ ان يغير ملامح الشعب العربي » .. فتلك ولاشك « مبالغة » .. تجاوزت كل حدود « المبالغة » المسموح بها .. حتى للشعراء !!.

فباستثناء قصائد ثلاث .. او اربع .. أو خمس .. بدات بقصيدته الشهيرة التي نزف فيها دماء قلبه .. « هوامش .. على دفتر النكسة » ، فان شعر

هنا يأتى العجب من تحولها الى الكشف عن جسدها بعد رسوخ قدمها ، وارتفاع قامتها .. وقيمتها .!!

ان اللاتى بدأن حياتهم « نجمات اغراء » .. كهند رستم مثلا ، مالبثن أن تحولن ـ بعد مارسخت اقدامهن ـ الى الادوار الجادة التى تتفق وما حققته من نجاح ، وما صار لهن من مكانة .. وليس صحيحا أن « ... » تفعل ذلك من قبيل التهالك على جمع المال .. فما أكثر مارفضت من ادوار لانها لم ترضها ، او لم تقنعها ... واذن ، فما هو السبب الحقيقى وراء رضائها بالكشف عن نصف جسدها .. وربما اكثر ؟!

الجواب محير .. ولا احد غيرها يعرفه .

« نزار » كله يكاد ان يكون غناء : غناء للحب .. وللمراة .. « ولاجزاء بعينها » من جسد المراة .. وتكاد اربعة اخماس السنوات الثلاثين التى استنفدها « نزار » فى قول الشعر ، ان تكون قد استهلكت فى هـذا اللون من الغناء ..

وليس يعيب « نزار » أن يكون ذلك رصيده . فليس مطلوبا من الشاعر — اى شاعر — ان يكون « زعيما » .. وليس مطلوبا منـه ، أيضـا ، أن يكون « مصـلحا اجتماعيا » .. فما اكثر الذين يستطيعون — وبصورة .. او باخرى — ان يكونوا « مصلحين اجتماعيين » . ولكن قليلين جدا أولئك الذين يستطيعون ان يكونوا « شعراء ». واقل منهم ، ولاشك ، الذين يستطيعون أن يكونوا « نزار قبانى » .

الممثلة العظيمة .. لماذا تتعرى ؟

صارت « ... » ممثلة عظيمة . هذه حقيقة فنية قائمة ، لا خلاف عليها . ولانها صارت ممثلة عظيمة ، فلم يعد مقبولا منها أن تظهر فى الافلام السينمائية وقد كشفت عن نصف جسدها .. وربما أكثر !!

ان هذا شيئا تفعله ، عادة ، العاطلات من المواهب ، انهن يعتمدن على اجسادهن لتكون بديلا عن مواهب لا تتوفر لهن . ولكن ، ان تكون الممثلة موهوبة .. وان تكون متعددة القدرات مثلما ان « ... » متعددة القدرة على اداء كل لون ، وكل دور ، فان الامر هنا يصبح مثيرا للدهشة .. بقدر ماهو مثيراً للتساؤل . وايضا للعتب على الممثلة التى صارت « عظيمة » ، ولكنها لا تستطيع مع ذلك ، أن تحمى نفسها .. ولا جسدها .. من مطالب المخرجين أو المنتجين .!!

ولقد يقال لها .. أو لنا ــ دفاعا عنها ــ أن « مارلين مونرو » كانت هى ايضا « ممثلة عظيمة » ، ولم يمنعها ذلك من أن تكشف عن جسدها فى معظم أفلامها .. بل لعلها ظلت تكشف عن هذا الجسد الى أن ماتت .!

غير ان الذين قد يقولون لنا ذلك ــ دفاعا عن « ... » ــ ينسون أن « مارلين مونرو » بدأت حياتها « نجمة اغراء » .. ولعلها قد انهت حياتها وهى لاتزال كذلك .!! أما نجمتنا هذه ، فلم تبدأ الطريق كنجمة اغراء . بل بدأته فى فيلمها الاول « فلاحة مصرية صميمة » . ومن

الفنان .. والثناء !!

الفنان : روائيا كان ، ام شاعراً ، أم كاتبـا ، ام موسيقيا ، ام رساما .. لا يستطيع ان ينمو ، ولا ان يزدهر ، ولا ان يعطى .. فيجزل العطاء ، بعيدا عـن احساس الجماهير به ، وتجاوبهم معه ، واشعاره ــ عن طريق هذا الاحساس به ، والتجاوب معه ــ انه لا يحرث فى البحر .. ولا يصرخ فى الصحراء .

ان كلمة ثناء واحدة أو عبـارة اعجاب واحدة يسمعها الفنان .. تفعل بنفسه فعل السحر ، وتفجـــر فى اعماقه ينابيع جديدة .. ينابيع كثيرة .. ماكانت لتنفجر فى اعماقه ، لو أنه وقع تحت الشعور بانه يحـرث فى البحر ، أو يصرخ فى الصحراء !

ومن هنا .. كانت سعادتى كبيرة ، وعميقة حين جاءنى ــ عبر الهاتف ــ صوت الاديب الكبير .. الطيب صالح، مدير الاعلام فى قطر ، حاملاً الى ثناء المحب .. واعجاب الفنان .. بما اكتبه تحت عنوان « رحلة .. فى اســرار الامس » . ومع أن ما اكتبه ، تحت ذلك العنوان ، ليس « فنا » ــ بالمدلول الدقيق ــ لكلمة « فن » . وانما هو مزيج من التاريخ ، والسياسة ، الا ان الفنان الحقيقى ، على الجانب الاخر من « الهاتف » ، جعلنى أشعر وكأننى اكتب « فنا » .

ولم يزعجنى ــ وسط ثنائه المحب على ما اكتب ــ قوله « انه كان يقرأ لى من ثلاثين سنة » !! فلقد بدات

اكتب حين كانت سني آثنتين وعشرين سنة . ولا ادرى كم كانت سن « الطيب صالح » وقتها .. فربما كانت اكبر ، وربما كانت اصغر . ولكن المؤكد أنه ماتزال امامه سنوات طويلة قبل أن يبلغ « سن التقاعد » . وان كانت الحقيقة انه ليس ثمة « سن للتقاعد » بالنسبة للفنان . فالفنان الاصيل ، كالنهر الاصيل .. تشرق عليه الشمس وتغرب .. وتجيىء الايام وتروح .. وهو مستمر فى عطائه ، مستمر في تدفقه ، مستمر فى احتفاظه ببسمته الساخرة من شروق الشمس وغروبها ، ومن مجيىء الايام ورواحها . ولعلها ليس صدفة أن يكون «الفنانالحقيقى» عبر الجانب الاخر من الهاتف ، واحدا من ابناء « منبع » ذلك النهر الاصيل ، العظيم .. نهر النيل .. المتدفق بالعطاء دوما ، المتدفق بالحياة دوما .. كأى فنان معتق .. واصيل .

فارس حقيقي !!

لم اكن قد رايته ، ولا التقيت به ، قبل هذه المرة التى رايته فيها يدخل على بيتى مواسيا .. بمناسبة ذكرى الاربعين لوفاة ابنتى . جاء فى الوقت الذى كان فيه المواسون الآخرون قد اخذوا فى الانصراف ، فبدا كلامه معى بالاعتذار عن تأخره .. فقد مضى عليه اكثر من ساعتين وهو يدور فى كل احياء مصر الجديدة ، بحثا عن بيتى الذى لم يكن يعرفه من قبل . احسست برجولته تحمله ، فورا ، الى حنايا قلبى الذى كان ينزف دما .. فانا ، كما اسلفت ، لم اكن قد التقيت به ، ولا عرفته ، ولم تتعد علاقتى به سطورا عشرة كتبتها ، فى زمن ما ، محييا واحدا من مواقفه الرجولية التى لا تحصى .. ولا تعد .

ومن حيث لا ادرى .. وجدتنى اقارن بينـــه وبين موسيقار كبير جدا .. ويقولون عنه انه « ذكى جدا » . كان يدعوننى الى مائدته ـ حين كنت فى دائرة الضوء ـ سبع مرات فى الاسبوع .. وكنت اعتذر عن دعـوته ست مرات ، واقبلها مرة ، من باب الخجل . ولما دخل اخى الكبير المستشفى لاجراء عملية جراحية ، وعــلم « الموسيقار الكبير جدا » بذلك ـ وكنت ما ازال فى دائرة الضوء ـ ارسل الى اخى الذى لم يكن يعرفه .. ارسل اليه على المستشفى باقة ورد فاخرة جدا .. لابد انها كلفته الشىء الكثير !! فلما دارت الايام ، و

« السلطة » الى « دائرة الظل » ، نسيني « الموسيقار الكبير جدا » الذى كان يحدثنى تليفونيا مرة .. واثنتين .. وثلاثا فى اليوم الواحد ـ نسينى الى حد انه حين توفيت ابنتى التى جاءنى الفارس الحقيقى « أحمد مظهر » ـ على غير معرفة سابقة ـ مواسيا فى وفاتهـا .. لم يتفضل « الموسيقار الكبير جدا » بأن يرسـل لى برقية عزاء !! .

ان آلفرق بين « احمد مظهر » ، وبين « الموسـيقار الكبير جدا » .. هـو أن الاول « فارس .. حقيقى » بينما آلثانى « تاجر .. تاجر حقيقى .. والفرق بين أخلاق « الفرسان » واخلاق « التجار » هو ... لا .. لن اقوله ، حتى لا اغضب التجار .

عن :
شخصيات من
هنا ومن هناك

دموع الرجال !!

فى لحظة .. اصبح اقوى رجل فى العالم ، هو اضعف رجل فى العالم .. تخلت عنه قواه ، واغرورقت عيناه بالدموع ، وخانته الكلمات .. فلم يستطع ان يكمل « كلمة الوداع » التى كان بسبيل توجيهها الى امته التى خلعت عنه ثقتها ، ومنحتها لرجل غيره !!

كانت صورته ، فى تلك اللحظة ، تمزق القلب ... وليس هناك ماهو اشد تمزيقا للقلب من رؤية « رجـل يبكى » .. ربما لان البكاء ليس من شيم الرجال .

لقد كانت هذه هى المرة الثانية التي احسست فيها بقلبى يتمزق ، من اجل « رجل قوى » .المت به لحظـة ضعف ساحقة . أما المرة الاولى ، فكانت تلك التى رأيت فيها « عبد الناصر » ، وهو يعلن من على شـــاشة التليفزيون ، تنحيه عن الرئاسة .. كرد فعـل طبيعى للهزيمة القاسية التى حلت به فى حرب لم يكن يتوقع منها الا أعظم الانتصار .

وعلى ألرغم من اننى ، فى ذلك الوقت ، كنت مختلفا مع « عبد الناصر » .. وعلى الرغم من اننى كنت معزولا عن ساحتى بأمر شخصى منه ، قبـــل سنتين من تلك الهزيمة ، الا أننى ، مع ذلك ، احسست بقلبى ينزف من اجله .. فلم تكن صورة ذلك « الجبل الشامخ » ، وهو يخر صعقا ، بالصورة التى يستطيع اي قلب ، حتى لو كان من حجر ، الا ينزف من اجلها .

ولقد كانت تلك هي نفس مشـــاعرى تجاه ألرئيس الامريكى السـابق « جيرالدفورد » حين رايته ، علىشاشة التليفزيون ، عاجزا عن ان يملك نفسه من البكاء . لحظتها لم أر فيه صورة رئيس دولة لا أحمل لها ــ كعربى ــ الا نفس المشاعر التى يحملها لها كل عربى ، ويعـرف فيها « القوة » التى تعمل على ضرب وحدتنا وتفـريق كلمتنا .. كلما سنحت لها الفرصة لتفعل ، وانما الذى رايته فى « جيرالد فورد » ، فى تلك اللحظة ، هـــو صورة « الرجل القوى » بل « اقوى رجل فى العالم ــ بحكم الدولة التى كان يراسها ــ وهو يتهاوى تحت مطارق الهزيمة ، فلا يملك الا « الدموع » يعبر بها ، عن احساسه

انها للحظة سعيدة ، بلا شك .. والى ابعد حدود السعادة ، تلك التى يستطيع فيها انسان ما أن يجلس فوق أعلى قمة فى بلاده . وبالمقابل فانها للحظة تعسة ، أشد ماتكون التعاسة .. تلك التى تسقطه فيها ظروف خارجة عن ارادته .. من فوق ألقمة نفسها .. فــلا يملك ، ساعتها ، الا أن يبكى .. على الرغم من أن البكاء ليس من شيم الرجال .

المرأة .. وجحر الافاعي !!

الذى حــدث فى الصين لارملة « ماو » بعـــد وفاة زوجها .. والذى حدث قبله فى الارجنتين ، لايزابيلا بيرون .. والذى حدث فى « الهند » لانديرا غاندى .. جدير بأن يقنع النساء ـ كل النساء ـ بأن الســـياسة « لعبة قذرة » .. وأنهن لسن مهيئات ، بطبيعتهن .. وايضا بطبائعهن ، للخوض فى هذه « اللعبة القــذرة » التى يقدر عليها « بعض » الرجال .. وليس « كـــل » الرجال .

لقد نجحت الطبيعة فى ان تشحن المرأة بقدرات هائلة على العطاء . ولكن ، ليس فى مجال الحرب . ولا فى مجال السياسة .. وانما فى مجال البر ، وفى مجـــال الخير ، وفى كل مجال يحتاج فيه الانسان ـ كانسان ـ الى الكلمة الحنون ، والى اللمسة الحنون ، والى العطف الدافق يحفظ له قواه ، ويمسك عليه نفسه ، ويعينه على المشي فوق أشواك الحياة .

صحيح أن للسياسة أضواءها الباهرة .. وصحيح أن المرأة .. اية امرأة .. وكل أمرأة ـ انما هى « فراشة » تعشق الاضواء ، وتحب ان تلقى بنفسها ، وبكل مالديها من حماسة ، فى قلبها .. دون أن تقيم اى اعتبار الى أن هذه الاضواء قد تسلبها ، فى لحظة ، بصيرتها .. وبصرها .. بل وكل حياتها .!! الا ان المرأة ، مع ذلك ، ما ينبغي لها ان تجهل .. ولا ان تتجاهل .. أن « عالم

السياسة » ليس سوى صورة أخرى من « عالم الافاعى» .. الكبير فيه يلتهم الصغير ، ولا يستطيع أن يصمد فى غذا « العالم المفزع » الا فريق من الرجال هم اقرب مايكونون الى فصيلة « القطط المتوحشة » التى لا تتردد فى ان تقتل .. لكى تعيش !!.

لقد كانت المراة ، وما تزال ، ولسوف تظل ، محتاجة لمن يحميها .. لمن يفرد عليها جناحه .. لمن تقف وراءه ، وتتركه يزود عنها الازمات ، والاخطار ، والعواصف .. الا انه فى « عالم السياسة » لا أحد يستطيع ان يحمى المراة من كل هذا .. لا احد يستطيع ان يدفع عنهـا السجن ، او النفى ، أو الحكم بالاعدام .. بل انها سوف تفاجأ بأن الجميع قد تخلوا عنها — هذا اذا لم تفاجأ بأن الجميع قد انقلبوا عليها .. وتركوها لقدرها تواجه — بمفردها — مصيرها .. وتتحمل — بمفردها — نتائج الزج بنفسها فى .. « جحر الافاعى » !!

وما أرملة « ماو » .. وانديرا غاندى .. وايزبيلا بيرون ، الا أمثلة .. مجرد امثلة على ماأقول .

ليت شبابنا يفعلها !!

على امتـداد يومين متصلين ـ شهدت احدى قاعات « مطار شارل ديجول » بفرنسا ، أجتماعا تاريخيا حضره اكثر من خمسة آلاف شاب فرنسي من اعضـاء « تجمع الشباب الديجولى » . لم يرفع الشباب فى هـذا الاجتماع اصواتهم بالهتاف ضد أحد .. ولم يلوحـوا بقبضاتهم الشابة فى وجه أحد ، ولم يتطاولوا على أحد ولم ينتقصوا من قدر احد . فلقد أعطوا « اجـازة » لقواهم كلها ـ عدا عقولهم ـ فانها وحدها التى كان عليها تحضر هذا الاجتماع ، وهى وحدها التى كان عليها ان تتكلم .. وهى وحدها التى كان عليها أن تخطط ، وتفكر ، وتدبر . ذلك لانهم اجتمعوا من أجل هدف مسـتقبلى ، ووطنى، ونبيل .. اجتمعوا من اجل أن يحددوا « صورة فرنسا .. كما يريدون أن يروها فى سنة ٢٠٠٠ » ، بعد أن كانوا قد كونوا ـ للهدف نفسه ـ لجانا بلغ عدد افرادها ٥٧٩ شابا وشابة ، تحت سن الخامسة والعشرين واختصت كل لجنة يبحث موضوع معين .. ابتداء من تلوث البيئة الى السياسة الخارجية لفرنسا ، عن طريق اجراء الابحاث ، والدراسات الميدانية .. مسـتفيدة فى ذلك بالعلماء ورجال الاقتصاد ، والمفكرين ، والفنيين فى كل الموضوعات التى تصدت هذه اللجـان لدراستها وبحثها .

ويعبر « الشباب الديجولي » عن هومه هذه ، ببساطة شديدة .. وايضا بعمـــق شـديد . انهم يقولون : « المستقبل هو حياتنا نحن ، وليس حياة الجيل الذي يتولى السلطة الان .. ومن ثم ، فمن العبث أن يقـوم الكبار ـ وحدهم ـ باية محاولة لتحديد صورة المستقبل .. ذلك لانه مستقبلنا ، وليس مستقبلهم » .

فما احوج شباب امتنـــا العربية ـ من المحيط الى الخليج ـ الى التفكير الجدى فى مستقبل بلادهم سنة ٢٠٠٠ ، بهذا الاسلوب .. وبهذه الطريقة التى فكر بهـا « الشباب الديجولى » فى مستقبل فرنسا ، فمهما يكن من امر المشكلات التي تعترض طريق « مستقبل فرنسا » .. فانها ، فى اول الامر .. وفى آخره ـ أمة متقدمة ، وتستطيع ـ بتقدمها ـ التغلب على اكثر مشكلاتها . اما نحن .. فكلنا امم نامية . وكلنا لنا من المشكلات فى الحاضر ماينبىء بأن المستقبل سوف يكون مروعــا ، ومفزعا .. فهل يتحرك شبابنا العربى ، فى كل امتنــا العربية ، الى شىء كهذا الذى تحرك اليه « الشباب الديجولى » فى فرنسا .. ويحاولوا ـ مستعينين بخبرة الخبراء وبفكر المفكرين ـ أن يشاركوا فى رسـم صورة المستقبل الذى هو ـ باليقين ـ مستقبلهم .. وليس مستقبل احد من أولئك الذين يحكمون ؟ .

عندما يقول القدر : كفى ..!!

في رأى المؤرخ الالمانى العظيم .. « اميل لودفيج » .. أن « نابليون » لم يهزمه أحد .. لم يهزمه قائد ، ولم تذهب بمجده معركة . وانما الذى هزم « نابليون » — فى رأى « لودفيج » — هو « القدر » الذى ضاق ذرعا بانتصاراته ، فرفع يده فى وجهه قائلا : « كفى » .. وكانت « كفى » هذه ، هى القاضية !!.

قفز هذا الرأى الى خاطرى . وانا اقرأ اخبار تلك الجلطة الدموية التى أصيب بهــا بطل الابطــال « محمد على كلاى » فى احدى ساقيه ، نتيجة لمباراته السخيفة ، والتى لم يكن لها طعم ولا مبرر .. مع المصارع اليابانى « اينوكى » .

فهل هو « القدر » ، مرة اخـــرى ، يضيق ذرعــا بانتصارات « محمد على » فيرفع يده فى وجهه ، كمــا رفعها من قبل فى وجه « نابليون » ، قائلا : « كفى » .؟

ذلك وارد . فلقد قالت التقارير الطبية عن حــالة « بطل الابطال » : أن ساقيه لن تعودا الى حالتهمــا الطبيعية ، بعد ذلك الذى أصابهما فى تلك المباراة التى لم يكن لها طعم ، ولا مبرر . ألا أن يكون « القدر » هو الذى أرادها لتضع حدا لانتصارات « محمد على » التى لعله — اى القدر — قد ضاق بها ذرعا .. بعد اذ رأى انها طالت وتعددت .. وتجاوزت حدود الانتصار المسموح بها لرجل واحد .. فى زمن واحد .

على كل حال .. هذا وجه من وجهى الصورة .. أما ألوجه الآخر ، فهو أن يكون « القدر » ، مثلنا ، منحازا لمحمد على .. ولا يريد له ان يهزمه ملاكم ، ولا أن يرديه وانما ليصيبه بما أصابه ، فيحمله على الاعتزال .. دون ان يتجرع مرارة الهزيمة ، ودون أن يسقط اكليل المجد من فوق رأسه .

الا ليت « بطل الابطال » يستجيب لاشارات «القدر» .. ويفعلها .. فيظل محتفظا ــ والى الأبد ــ باكليل المجد فوق رأسه (١) .

«١» لم يرد « كــلاى » أن يتفهم اشارة القدر هذه ، أو لعله لم يفهمها .. فكانت النتيجة انه أستمر .. واستمر .. حتى خسر على « حلبة الملاكمة » ، مايمكن اعتباره أعظم اكليل مجد توج راس بطل .

الرجل والاسطورة !!

ــ مات آخر عمالقة الحرب العالمية الثانية .. الفيلد ماريشال مونتجمرى .. أو « لورد أف علمين » ــ حسب اللقب التكريمى الذى منحته له بلاده . عرفانا ، وتقديرا لنجاحه فى هزيمة « ثعلب الصحراء .. الفيلد ماريشال رومل » ــ بعد أن كان هذا قد هزم فى معركة الصحراء الغربية المصرية ، اربعة من اعظم قادة بريطانيا .. هم على التوالى : الجنرال ويفل .. والجنرال ولسون .. والجنرال ريتشى .. والجنرال أوكلنك .

ونتيجة لهذه الانتصارات المتوالية من جانب « ثعلب الصحراء » .. والهزائم المتوالية من جانب القـــادة الانجليز .. صار الرجل .. « رومل » ــ صار «خرافة » نفذت بسحرها الى نفوس جنود « الجيش الثـــامن البريطانى » ــ وهو الجيش ألذى كان عليه أن يتصـــدى لمقاتله رومل ــ وسيطرت على مشاعرهم ، وجعلتهـــم يلقون بأسلحتهم .. ويولون مدبرين كلما سمعوا ــ أن صدقا .. وان كذبا ــ ان « ثعلب الصحراء » قد ظهر فى الميدان معتليا دبابته !!

ومن هنا .. كان الهم الاول « لمونتجمرى » ، حين وصل الى الصحراء لقيادة قوات الجيش الثامن ، ان يستل من نفوس جنوده ذلك « السحر » الذى استطاع « رومل » ان ينفذ به اليها .!!

ولم تكن المهمة سهلة . فبعد انتصارات فى عشرات

المعارك .. وبعد هزيمة اربعة من المع قادة بريطانيا فى هذه المعارك .. كان لابد لروميل من أن يتحـــول الى « أسطورة » تسيطر بسحرها على عقول جنود بريطانيا .. وتتسلل الى نفوسهم حتى النخاع !!

ويكفى لكى تقدر مدى الصـــعوبة التى واجههـــا « مونتجمرى » ، وهو فى طريقه الى القيام بهـــذه المهمة ، ان تعرف أن جنوده ــ جنود الجيش الثامن الذى ذهب الى الصحراء ليتولى قيادته ــ كانوا يعلقون ، داخل خيامهم ، صور « ثعلب الصحراء .. روميل » وليس ثمة صورة اخرى .. لاى قائد آخر من قادة بريطانيا .!!

نجح الرجل فى تطهير نفوس جنوده من ذلك « السحر » . وبعدها .. استدار « لثعلب الصحراء » .. ودخـــل معه فى معارك متعددة .. معركة تلو معركة .. تكللت جميعها بالانتصار .. وبدأ نجم « مونتى » ــ وهو اسم التدليل الذى اطلقه عليه جنوده ــ بدأ يدخل مرحـــلة التألق .. بينما اخذ نجم « روميل » يدخل مرحـــلة الافول .. حتى حلت الساعة التى استطاع فيها خصمه أن يمحقه تماما فى معركة « العلمـــين » التاريخيـــة الشهيرة .

وهكذا .. ولد ذلك المجد العظيم الذى صار جـزءا لايتجزأ من اسم الفيلد مارشال مونتجمرى .. أو « لورد أف علمين » .. لكن هذا المجد العظيم لم يكن له أن يتم الا على حساب زوال مجد عظيم اخر .. هو مجد « ثعلب الصحراء .. « روميل » فهذه هى طبيعة المعارك .. وهذه هى طبيعة التاريخ بل هذه هى طبيعة الحياة نفسها .. منذ الازل والى الابد . صعود وهبوط ، وتوهج وافول .. وليس ثمة شىء دائم ، وليس ثمة شىء مستحيل . !!

الحب أولا .. والحب أخيرا .. !!

ستون الف جنيه استرلينى « !! » دفعتها شخصية عربية ، ثمنا لسيارة واحدة .. مصممة تصميما خاصا. وابرز مافى هذا « التصميم الخاص » انها - اى السيارة - مزودة بمدفع رشاش يعلو سطحها .. وانها صنعت من صاج مصفح لايخترقه الرصاص .!!

والانسان الذى يقتنى سيارة هذه هى أبرز خطوط تصميمها ، انما هو انسان يعلم - تماما - انه بغيض الى قلوب شعبه ، اذا كان حاكما .. وبغيض الى قلوب المحيطين به ، اذا لم يكن كذلك .!

وانسان كهذا ، يستحيل أن تزيده مثل هذه التصرفات الا بغضا على بغض ، ولن تجر عليه الا مزيدا من النقمة . ان « المدافع الرشاشة » .. و « السيارات المصفحة » .. لو كانت قادرة على ان تحمى احدا ، لكانت قد حمت « جون كنيدى » من القتل .. ولم يكن - كما جميعنا يعرف - بغيضا الى قلوب من كان يحكمهم ، كما انه لم يكن بغيضا الى قلوب المحيطين به ، ولم يفكر هو - نفسه - فى أن يزود سطح سيارته الخاصة بمدفع رشاش .!!

ان « الحب » - وليس « المدفع الرشاش » .. ولا « السيارة المصفحة ضد الرصاص » - هو الذى يحمى الحاكم .. اى حاكم .. لكن هذا « الحب » لن يتأتى لاى حاكم الا عن طريق « العدل » .. « العدل » .. الذى

يستهدف قضايا الشعوب ويستمد قوته ، وعظمته من التفاعل الحقيقي ـ وليس المظهري ـ مع آلام هـذه الشعوب وآمالها ، ومتاعبها ، وجراحها .

والانسان الذى يقبل على نفسه إن يقتطع من اموال شعبه ، ستين الف جنيه استرليني .. يدفعها ثمنا لسيارة لا يخترقها الرصاص .. لا يمكن ان يكون انسانا عادلا .. ولا يمكن ، بالتالي ، ان يحظى من شعبه بذرة من « الحب » الذى يستطيع ان يقوم ، في حمايته ، مقام « المدفع » .. ومقام السيارة التى لا يخترقها الرصاص .

ان بعض الحكام يخدعون انفسهم خداعا بغير حدود عندما يتصورون انهم يستطيعون أن يحكموا شعوبهم « بالمدافع » من دون « الحب » .. وهم يخدعون انفسهم خداعا أكبر ، واكبر ، عندما يتصورون أنهم يستطيعون ان يفوزوا بالحب ، دون ان يترسموا طريق « العدل » .. ولو انهم علموا أن طريق « الحب » الناشيء ـ بالضرورة ـ عن « العدل » ليس صعبا ، لوفروا على انفسهم ، وعلى شعوبهم ، كل درهم يدفعونه ثمنا لسيارة مصفحة ، أو لمدفع رشاش ، يتوهمون انه سوف يحميهم مما لن يحميهم منه شيء آخر غير الحب .. وغير العدل .

المحارب بالسيف .. وبالكلمة .. !!

كان الرجل عظيما بشكل غير عادى . كان ينظر الى وجهه فى المرآة فيرى فيه صورة « فرنسا » .. وكان ينظر الى صورة « فرنسا » فيرى فيها وجهه هو ... وجه « ديجول » !!

ولان الرجل كان عظيما بشكل غير عادى ، فكان قليلا عدد الرجال الذين كان يحترمهم .. واقل منهم عدد الذين كان يحبهم .. واقل من هؤلاء وهؤلاء ، عدد الذين كان يحبهم ويحترمهم .. ولقد كان « اندريه مالرو » ، المفكر الفرنسى العظيم ، ووزير الثقافة فى حكومة «ديجول» والذى رحل عن دنيانا فى نوفمبر سنة ١٩٧٦ . واحدا من تلك القلة النادرة من الرجال الذين كان « ديجول » يحبهم .. ويحمل لهم ، فى ذات الوقت ، أعظم الاحترام .

« الى يمينى .. كان يجلس ، دائما ، « اندريه مالرو » .. وزير الثقافة .. وكان وجود هذا الصديق الذى يضم بين جوانحه قلبا ملتهبا كقلوب اصحاب الرسالات ، الى جانبى .. يجعلنى اشعر بان ثمة « مظللة » من الافكار تظللنى ، واستطيع ، دائما ، ان الوذ بها . وعندما كانت المناقشة تحتدم حول موضوع خطير ، كنت اثق بان رايه الذى يلمع فجاة مثلما يلمع البرق .. سوف يساعدنى ، حتما ، فى تبديد اكثر الظلام ، ان لم يكن كل الظلام ، من امام عينى » !! .

لقد قاتل « مالرو » ، فى سبيل الحرية ، بقلمه .. وعندما تصور أن القتال « بالقلم » لم يعد يكفى .. لم يتردد لحظة فى ان يحمل السلاح .. علق بندقيته فى كتفه ومضى الى اسبانيا ليقاتل فى صفوف الثوار ضد الزحف الفاشى .. وهناك ، جرح ١٤ مرة .. وأسر أكثر من مرة .. ولكنه كان يبرأ من جراحة ، ويهرب من اسره ، لكى يعود فيمتشق السلاح .

ثم وضع « مالرو » قلمه جانبا ، مرة اخرى ، ليحمل السلاح جنديا فى فرق المقاومة الفرنسية ضد الزحف النازى على بلاده .. وانتصر الرجل مع المنتصرين .. وكان طبيعيا ، بعد ذلك ، ان يصبح وزيرا للثقافة فى حكومة المنتصرين .. فيجلس ، دائما ، الى يمين « ديجول » .. وتلمع أفكاره كالبرق ، فتبدد الظلام من حول الرجل الذى كان ينظر الى وجهه فى المرآة ، فيرى فيه صورة « فرنسا » !

ما اروع ان يصبح رجل واحد — من خلال كتاباته وافكاره وكلماته .. وليس من خلال ملايينه وثرواته — خبرا تذيعه كل أذاعات العالم .. باعتباره — حيا .. وميتا — شيئا يهم العالم .. كل أركان العالم .

مصيبة الانسان الكبرى .. !!

« مصيبة الانسان الكبرى ، فى رأيى ، هى عجزه المزرى عن الاتعاظ » ..

قفزت هذه الحقيقة الى خاطرى ، بينما كنت اتأمل صورة صلاح نصر .. « ملك التعذيب فى مصر » .. وهو قابع فى « قفص الاتهام » كأسد حطمت أنيابه .!! فلا احد كان يتوقع ، او يتصور ان هذا الذى حدث .. كان من الممكن أن يحدث . لكن الايام تدور ، وتحمل معها ــ وهى تدور ــ كل غريب ، وعجيب .!! انها تسقط ملوكا من فوق عروشهم ، وتأتى بآخرين ربما من آخر الصفوف ــ لتجلسهم فوق العروش التى هوى أصحابها .. ترفع قوما الى السماء ، وتهوى الى الحضيض بآخرين كانوا فى السماء من ساعات او لحظات .. وكانت مصيبتهم انهم كانوا يعتقدون انهم سيظلون محلقين فى السماء ، الى ان تفنى الارض .. وما عليها .. ومن عليها ..

فما حدث لصلاح نصر ، وما حدث لاقرانه ، واترابه .. حدث مثله وبالضبط لآخرين قبلهم . كانوا ملوكا غير متوجين .. وكانوا ، من وراء الستار ، يحكمون الملوك المتوجين .. ولانهم كانوا يحكمون هؤلاء الملوك ، فقد اخذتهم العزة بالاثم . ومضوا يتعاملون مع الاخرين ، ويعاملون الاخرين .. وكأنهم حشرات ، أو ربما ادنى .!! ثم مالبثت الايام أن دارت عليهم .. فاذا بهم يسقطون من فوق عروشهم .. وأذا بهم يحاكمون ويسجنون ..

او يفرون هاربين من وجه شعوبهم .. الى حيث لايد تصافحهم .. ولا مخلوق يرحب بهم !

ولان « صلاح نصر » .. واقرانه واترابه .. هم الذين حاكموا اولئك الملوك ، غير المتوجين ، واعتقلوهم وسجنوهم فقد اصابتهم « مصيبة العجز عن الاتعاظ » .. وظنوا ان الدنيا قد دانت لهم .. وانها ـ ابدا ـ لن تدور بهم او عليهم .. لكنها ـ وهذا هو قانونها الازلى الذى لن يتغير أو يتبدل ـ دارت ، ودارت ، ودارت .. وكل ماهنالك انها صبرت عليهم حتى وصلوا الى اعلى عليين .. حتى صاروا ملوكا يفترشون الحرير ، ويمشون على الحرير ، يلبسون ماهو اطيب من الحرير .. واغلى من الحرير !! ثم .. ثم القت بهم من شاهق .. فدقت اعناقهم ، وتحطمت عظامهم ، واصبح سلطانهم كله ، مجدهم كله ، عظمتهم الكاذبة كلها .. مجرد هشيم اذرته الرياح .!!

ولكن .. هل انتهت المصيبة ..؟ اعنى .. هل انتهت مصيبة الانسان الكبرى . المتمثلة فى عجزه عن الاتعاظ ؟

لا اظن ..

فمازال هناك كثيرون .. وكثيرون .. من طراز « صلاح نصر » .. واقرانه ، واترابه .. ومازالت مصيبتهم هى نفس مصيبته .. انهم لايريدون ان يتعظوا بما وقع له .. ولا بما وقع لغيره من اشباهه واقرانه .. فتراهم يصممون ـ وهذا هو العجيب ـ على ان يبقوا كذلك ، حتى يقع لهم ـ وبالضبط ـ نفس ماوقع لهؤلاء .. ولغيرهم .. فيلقى بهم من شاهق .. وتدق منهم الرءوس والاعناق .!!

قدر الناجحين .. !!

لم تكن « التجربة » طويلة . لكنها كانت عريضة وعميقة .. تعلم فيها مالم يتعلمه خلال ثلاثين سنة من عمره . عرف فيها « رجالا » تساوى معرفتهم ــ مجرد معرفتهم ــ قناطير من الذهب . رجالا يضعون « الكرامة» فوق المال ، و «الشرف» فوق جميع المصالح والاعتبارات والعلائق .

وعرف فيها « آخرين » برعوا براعة يحسدون عليها فى صناعة « الاقنعة » : اقنعة الاخلاص ، والود ، والمحبة .. يفطرون معك فى الصباح ، ويتعشون فى المساء بسيرتك .. يقولونك مالم تقله ، وينسبون اليك مالم تفعله ، وأيضا .. مــــالا تستطيع .. ومالا تملك أن تفعله !!

وعرفت فيها « آخرين » يتطوعون للشر ــ للشر فى ذاته ــ فليس بينك وبينهم طريق مشترك .. وليس بينك وبينهم محبة ولا عداوة .. بل ليس بينك وبينهم معرفة ، مجرد المعرفة ، ولكنهم ، مع ذلك ، يتطوعون ــ فى خسة « الانذال » ــ للتشهير بك ، وللتقول عليك .. يروا اعينهم مالم تر ، ويسمعوا آذانهم مالم تســـمع .. ويغرفون ، حتى الاذان ، فى بحور « الباطل » .. زاعمين انه « الحق » !!

وليس مهما لدى هؤلاء أن يكون كل مايقولونه لم يقع ،

ولم يحدث .. لكن المهم هو ان يذاع ويشاع ، وتتسع دائرة انتشاره .. بعد اذ علموا ان الرصاصة التى لا تصيب ، تدوى !!

هل ذلك كله هو « الضريبة » التى يتحتم على الناجحين ان يدفعوها ؟!

هو ذلك فعلاً .. وكلما كان النجاح كبيرا ، كلما كانت « الضريبة » أفدح .. فهذا هو قدر الناجحين ، وعليهم ان يحملوا « قدرهم » على أكتافهم ويمضوا .. فكما أنه ليس فى مقدور الفاشلين أن ينجحوا .. أيضا ليس فى مقدور الناجحين أن يفشلوا .. لمجرد ان يكف عنهم الفاشلون والحاقدون ، اذاهم .. ذلك أمر صعب ، بل هو امر مستحيل ..

ان على الناجحين أن يروضوا انفسهم على « دفع » هذه الضريبة مهما كانت فادحة .. عليهم أن لا يضيقوا بها .. ولا يرتاعوا منها .. وأن يجعلوا هتافهم ، مع كل صباح جديد :

مرحبا بك ياضريبة النجاح .. فى جميع صورك ، واحجامك ، والوانك ..

وكلمات أخرى .. !!

وتنتهى آلى هنا ، تلك « الكلمات المصرية » التى رأت ألنور ، لاول مرة ، على صفحات مجلة « الفجـــر » القطرية .. على مدى سنتين هما كل عمرها ــ تنتهى هذه الكلمات لكي تبدأ « كلمات مصرية » اخرى ، كان مــن نصيبها أنها نشرت هنا .. فى « مصر » .. بعد ان عاد القلم من رحلته التى لم يبتعد ، خلالها ، عن « مصر » لحظة .. وهيهات لمثل هذا الابتعاد أن يقوم و « مصر » موجودة ، دائما .. وابدا ، فى حبة العين .. وفى نبض القلب .. وفى مسرى الدم بالعروق .

ليس جحودا للعلم الأخضر .. !!

اعلن احد اعضاء مجلس الشعب انه سوف يتقدم الى المجلس بمشروع قانون باعادة علم « مصر الملكية » .. ذى الهلال والنجوم الثلاثة ، وتحويل علم « مصر الثورة » المثلث الالوان الى « علم تذكارى » .. اى الى المنفى !!

وبعد ان قال عضو مجلس الشعب هذا الكلام ، صدرت مجلة شهرية متخصصة ، وهى « الاهرام الاقتصادى » وقد زينت غلافها بعلم « مصر الملكية » . ولكن .. دون ما اى كلام ، وكأنها اختارت ان تكون دعوتها الى اعادة هذا العلم « صامتة » حتى لا يوردها الكلام موارد الحرج . !

ثم تبنى الزميل احمد بهجت ، فى بابه اليومى بصحيفة الاهرام ، نفس الدعوة قائلا : اننى اقترح — ان نعود لعلم مصر ذى اللون الاخضر .. بهلاله الابيض ، ونجومه الثلاثة . وهذا مجرد اقتراح ارجو انلايغضب العلم الجديد .. فمع احترامى الكامل للعلم الجديد ، الا أن الوانه كثيرة وصارخة .. والعلم القديم الوانه هادئة ووديعة ، ثم أن اقتصارنا على لونين فى العلم ، بدل أربعة الوان هو توفير للالوان ، وامكانياتنا المتاحة تدعو الى التوفير » .

وبعيدا عن جحود العلم الاخضر ذى الهلال والنجوم الثلاثة .. وايضا بعيدا عن التعصب للعلم المثلث الالوان

الذى رفعته ثورة ٢٣ يوليو ، بعد أن تم لها الانتصار على الغاصبين من كل لون وملة ، استطيع القول أن الدعوة الى اعادة العلم القديم ــ مهما كانت عواطفنا تجاهه ــ انما هى دعوة تجاوزها الزمن ، بقدر ماتجاوزتها حركة التاريخ ودوران الحوادث . ويكفى ــ لكى لا يفكر احد فى ارجاع ذلك العلم القديم الى حياتنا ــ ان نتذكر انه كان رمزا على « مصر السلطان » .. و « مصر الملك » . وقد كان « السلطان » .. مثلما كان « الملك » .. محكومين بقوة اجنبية غاشمة ، تأمرهما فيطيعان ، وتشير فيركعان . اما عن هلع ، واما عن طمع ، واما عن شىء هو مزيج من الهلع والطمع ..

ولنسلم ابتداء ــ وقطعا للطريق على كل محاولة للجدل ــ ان الثورة الوطنية التى انشأت هذا العلم المثلث الالوان ليكون رمزا على مصر جديدة محكومة بفلاح من أبنائها .. وليس بخديو ، ولا بسلطان ، ولا بملك .. قد وقعت فى بعض الاخطاء ، او فى كثير من الاخطاء .. وانها فى بعض المواقف ، او فى كثير من المواقف ، قد ضلت الطريق الى قواربها . ولكن .. هل باستطاعة أحد ، مهما بلغ من جحود ، ومن قدرة على الافتيات على التاريخ ، ان ينكر ان هذه الثورة الوطنية قد خاضت معارك تعتبر ــ بكل المقاييس ــ من اشرف معارك الشعوب من اجل حريتها ، ومن اجل تأكيد وجودها .. وانها ــ أى الثورة الوطنية ــ قد خاضت كل معاركها المجيدة هذه مستظلة بذلك العلم المثلث الالوان الذى ينادى بعضهم ــ ويا للعجب ــ بتحويله الى « علم للذكرى » !!

● ففى معركة اجلاء المحتلين عن ترابنا الوطنى ، كان

هذا العلم المثلث الالوان هو الذى ارتفع فى منطقة القنال فوق ساريات الثكنات التابعة لتلك الدولة البغيضة التى لم تكن الشمس تغرب عن ممتلكاتها .

● وفى معركة تأميم قناة السويس ، كان هذا العلم المثلث الالوان هو الذى ارتفع فوق ساريات مبنى الشركة الفرنسية التى كانت دولة داخل الدولة ، والتى لم يكن باستطاعة واحد من كل أولئك الذين حكموا مصر قبل الثورة ان يقول « بم » لواحد من العاملين فيها ، أو المنتمين اليها . !!

● وفى معركة بناء السد العالى .. كان هذا العلم المثلث الالوان هو الذى ارتفع فى سماء أسوان ، معلنا أن ارادة مصر فوق كل ارادة .. وان سواعد ابنائها سوف تظل ، دائما ، اقوى من القهر .. واقوى من الغدر .. واقوى من تآمر الكبار والصغار عليها .

ثم .. هل باستطاعة احد أن ينسى أن « علم مصر الثورة » قد بلغ ذروة امجاده عندما رشقه أبناء مصر .. « أبطال أكتوبر » .. كالخنجر فى قلب « بارليف » . ؟ ان هذا المجد ، وحده ، كاف لان يجعلنا نحيط العلم المثلث الالوان بكل الولاء ، وبكل الاعزز ، وبكل الحب .. ولان نبقيه ـ والى الابد ـ مرفوعا فوق رءوسنا رمزا على صلابتنا ، على عنادنا ، على اصرارنا على افتداء كرامتنا بكل مانملك من مال .. وبكل مانملك من دم .

***

وانه لصحيح أن هذا العلم نفسه كان قد انتكس ، فى حرب ٦٧ ، انتكاسة اليمة ومريرة . ولكن .. هل كان ، فى انتكاسته هذه ، بدعا بين أعلام الامم .؟

الجواب : كلا .. فلقد أنتكست ، على مدار التاريخ ، اعلام امم كثيرة .. غير ان ذلك لم يكن مدعاة لان يطالب احد باهدارها ، او بنفيها ، او بتحويلها الى « اعــلام للذكرى » !!

لقد انتكس ، على سبيل المثال ، علم فرنسا المثلث الالوان انتكاسة اكثر من مريرة .. سقط فى سنة ١٩٤٠ وسقطت باريس بسقوطه ، وسقطت بسقوط باريس فرنسا كلها .. ولكن « ديجول » عاد فى سنة ١٩٤٥ ورد علم بلاده الى ساريته العالية .. ومشى ، فى ظله ، الى قوس النصر .. شامخ الرأس ، موفور الكرامة .. ولم يجرؤ احد ، فى فرنسا كلها ، ان يرفع صوته مطالبــا بتغيير العلم الذى كانت النازية قد امتهنته ، واذلته ، وداسته تحت اقدامها .

والامثلة فى التاريخ كثيرة . ولكن الشعوب لا تجحد اعلامها ، ولا تهدرها ولا تطالب بنفيها .. ولا بتحويلها الى اعلام للذكرى .!!

لقد نشأ على ارض مصر ــ على امتداد الفترة من سنة ١٩٥٢ حتى الان ــ جيل كامل لم تر عيناه العلم الاخضر الذى يطالب بعضنا اليوم بعودته . وهذا الجيل نفسه هو الذى حارب معركة اكتوبر مستظــلا بالعلم المثلث الالوان . لقد عبر القناة تحته . وارتقى « حصون بارليف تحته ، وفتح القناة تحته .. ومن الجحود لبطــولات هذا الجيل أن نجعله يستيقظ ، ذات يوم ، ليجد نفسه قد استظل بعلم لم تره عيناه يوما .. ولم يستظل به يوما .. ولم ترفعه يداه ابدا !!

اننا مانزال حتى اليوم ، ولسوف نظل الى آخــر

العمر ، نغنى ــ وبكل الحنين والحب ــ نشيد « بلادى .. بلادى » الذى ولد من رحم ثورة ١٩١٩ . ومع أن هذه الثورة قد اجهضت قبل أن تحقق أيا من أحلامها ، الا ان أحدا لم يفكر فى مصادرة هذا النشـــيد الذى انتزعه « سيد درويش » من اعماق وجدانه ليبقى ، من بعده ، واحدا من أجمل الاشياء فى حياتنا .. فكيف بنا اليوم ، نريد مصادرة علم خضنا تحته أشرف معاركنا . وأثبتنا ، تحته ، اننا نملك ــ دائما ــ وفى ظل أقسى الظروف واصـــعبها .. ارادة الصـــمود ، وارادة التحدى .!!!

حتى تأميم القناة .. صار خطيئة .. !!

الذين يختصمون ثورة ٢٣ يوليو - بسبب او بغير سبب .. بوعى أو بغير وعى - يصممون على الا يروا في سجلها كله - على ضخامته - أى عمل عظيم .. كل مافى هذا السجل ، من وجهة نظر هؤلاء الخصوم ، ليس سوى سلسلة من الاخطاء الفادحة او الخطايا الجسام .. حتى تأميم قناة السويس - وهو واحد من اضخم اعمال هذه الثورة .. ومن اكبرها أثرا ،واشدها تأثيرا في مسار حركات التحرر فى العالم العربى والعالم الثالث - ((**كان خطأ .. كلفنا ان ندخل حربا لا مبرر لها، وان نفقد من ابنائنا عددا لا يمكن تعويضهم .. بينما لو كنا قد صبرنا على انفسنا ، لكانت شركة القناة ، بكل ممتلكاتها فى الداخل ، وفى الخارج ، وقد آلت الينا - بحكم انتهاء امتيازها فى سنة ١٩٦٦ - بغير حرب - ولا ضرب ، ولا ضحايا .**)) !

هكذا قال الزميل الاستاذ أحمد ابو الفتح فى ندوة صحفية عقدها اخيرا .

وما اظن أن احدا قد سبق الاستاذ ابو الفتح الى مثل هذا القول .. وما اظن ايضا ان احدا سوف يلحقه . ذلك لان سياسة الانتظار ((حتى يتساقط النصر تلقائيا))

لم تكن ، ولن تكون ، وسيلة معتمدة ضمن وسائل كفاح الشعوب . ولو أن ذلك كذلك ، لكان على حكومة الوفد التى كانت موجودة فى الحكم سنة ١٩٥١ أن تصبر على معاهدة ٣٦ حتى يحين موعد انتهائها .. فلا تبادر ، من ناحيتها ، الى الغائها .. ويترتب على هذه الخطـــوة ماترتب من خسائر مادية جسيمة ، ومـــن ضـــحايا مدنيين وعسكريين ان لم يعدوا بالالاف ، فهم ـ بالقطع ـ يتجاوزون المئات ـ ولم يقل أحد ، وقتها ، ولن يقـــول أحد ، فى المستقبل ، ان هذه الخطوة كانت عملا خاطئا من جانب حكومة الوفد . بل لعلها أن تكون فى نظـــر الكثيرين ـ وأحسبنى منهم ـ .. انصع صفحة فى كتاب تلك الحكومة ، باعتبارها كانت وقفة من نوع جديد فى وجه اولئك القراصنة الذين كانوا يحتلون أرضنا .

ولو اننا اخذنا بمبدأ الانتظار ـ تجنبا للمخاطـــر ـ لكان علينا أن ننتظر حتى يختار الله « الملك فاروق » الى جواره ، ويهبنا من لدنه « ملكا صالحا » يؤمن بحـــق الشعب فى الحياة ، ولا يقيم وجوده على اساس الاستناد الى جناحى الطغيان : الاحتلال الاجنبى .. والاقطـــاع الضارى . ومن ثم ، فلم يكن هناك اى داع لان تقـــوم ثورة ٢٣ يوليو التى كان من المحتمل ـ فيما لو فـــكر فاروق أن يقاوم ـ أن تتحول الى معركة دموية شرسة بين جيش الشعب .. وبين أولئك التعساء الذين كانوا سيختارون جانب الملك .!!

أيضا .. لو اننا اخذنا بمبدأ الانتظار ـ تجنبا للمخاطر ـ لكان علينا أن ننتظر حتى يلين لنا « قلب أمريـــكا » فتقوم بتسليح جيشنا ، حسبما تسمح لها رغبتهـــا

ألحقيقية فى تسليحنا : مدفع كل شهر .. ودبابة كل سنة .. وطائرة كل ١٠ سنوات !! ولما كان هناك اى مبرر لان نخوض معركة « كسر احتكار السلاح » بكل ماترتب عليها من آثار .. لعل حرب ٥٦ ، بل وحرب ٦٧ نفسها ، كانتا من أخطرها تخطيطا .. بوصفهما محاولتين جبارتين للقضاء على ذلك السلاح الذى بادرنا، بارادتنا الحرة ، الى جلبه من الشرق .. ولم تكن من « الحكمة » ، ولا من « التعقل » ، بحيث نصبر .. وننتظر .. حتى يجيئنا ــ تلقائيا ــ من الغرب !!

ايضا .. لو اننا اخذنا بمبدأ الانتظار ــ تجنبا للمخاطر ــ لكان علينا ان نؤجل التفكير فى بناء « السد العالى » عشر سنين .. وربما عشرين سنة .. حتى يرق لنا قلب « البنك الدولى » .. ورئيسه « يوجين بلاك » .. ومن ورائهما ــ بالطبع ــ امريكا ، فيقومون ــ تعطفا .. وشفقة ــ ببناء السد العالى متى أرادوا وكيفما ارادوا .. ولتفادينا بذلك كل الاثار التى ترتبت على مقاومة مؤامرة أمريكا ، ومعها البنك الدولى ، لنسف مشروع السد العالى .. بدءا بمقاومة تأميم قناة السويس .. ومرورا بحرب السويس .. وأنتهاء بالحصار الاقتصادى الذى فرضته دول الغرب علينا بقصد تركيعنا ، وتجويعنا .. الى آخر هذه الاثار التى خضناها واحتملناها ، والتى رفعت رءوسنا .. واعلت شأننا بين شعوب العالم والتى تعى ، جيدا ، انه ليس بالخبز وحده تحيا الشعوب .

***

لقد كان تأميم قناة السويس عملا ثوريا ونضاليا ، بكل مقاييس النضال والثورة .. ولو لم يكن لهذا العمل من نتائج الا انه حرك الدماء حارة فى عروق شعوب

الامة العربية التى كانت مغلوبة على أمرها ، وأعاد اليها الثقة بنفسها .. وبقدرتها على تغيير اوضاعها — لكان ذلك وحده كافيا لكى يوضع هذا العمل على رأس قائمة أمجد ماقامت به ثورة ٢٣ يوليو من اعمال .

وليس صحيحا ، مطلقا ، مايقال آن تأميم قناةالسويس كان قرارا أنفعاليا جاء كرد فعل مباشر لقيام البنـــك الدولى بسحب مشروعه لتمويل السد العالى . وبفرض أن القرار كان كذلك ، لما عابه ذلك ادنى عيب . فالشعوب الحية ، حقيقة ، انما هي التى تعرف كيف ترد على اية صفعة توجه اليها بصفعة أوجع واشد . ومع ذلك ، فالحقيقة التى يعلمها كل الذين كانوا قريبين من مسرح الاحداث فى تلك الايام — ومنهم عشرات لايزالون أحياء يرزقون — تؤكد أن قرار تأميم قناة السويس كان قـد درس ، منذ الشهور الاولى لقيام الثورة ، درســـا مستفيضا وعميقا .. بواســـطة عدد من الخـــبراء والقانونيين ، كان على رأسهم القانونى الوطنى العظيم الدكتور حلمى بهجت بدوى . وكان قرار التأميم جاهزا فى درج عبد الناصر فى انتظار الفرصة المناسبة لاعلانه . فلما قام البنك الدولى بسحب مشروعه لتمويل الســد العالى ، لم تكن امام عبد الناصر فرصة أثمن من هـذه لكى يخرج القرار من درجه ، ويعلنه على الملأ .. حتى يعلم ، من لا يريد أن يعلم ، اننا قد تغيرنا .. واننا لم نعد ندير خدنا الايسر لمن يصفعنا على خدنا الايمن .!!

***

انني واحد من الذين وقفوا بجانب ثورة ٢٣ يوليو ، منذ اللحظات الاولى لقيامها ، بل وقبل أن تقــوم ..

لكننى ، فى ذات الوقت ، وأحد من الذين يعترفون ـ وبأعلى الصوت ـ بأن لثورة ٢٣ يوليو اخطاء ليس من السهل الدفاع عنها . لكن هذه الثورة نفسها لها من الامجاد مايستحيل طمسه ، او اخفاء معالمه .

وليس معنى أن يكون لثورة ٢٣ يوليو اخطاء ، ان ينتهز البعض كل مناسبة .. واحيانا بغير مناسبة . لكى يجردوها من معظم امجادها ، او من كل امجادها .. ان ذلك لظلم عظيم لايقع على ثورة ٢٣ يوليو ، بقدر مايقع على مصر نفسها باعتبارها الام الحقيقية لهذه الثورة التى اسقطت الملكية .. واسقطت الاقطاع .. واسقطت الاحتلال .. وأممت القناة .. وكسرت احتكار السلاح . وشيدت السد العالى .. وخلصت الاقتصاد الوطنى من براثن الاحتكارات الاجنبية . واشعلت الثورة على الطغيان .. وعلى الاحتلال الاجنبى .. من المحيط الى الخليج .

انى لا انصب نفسى محاميا عن ثورة ٢٣ يوليو . فاحسبنى ـ حتى اللحظة ـ واحدا من جرحاها . لكن الجراح الشخصية شىء . والحق شىء آخر تماما .. والحق احق بأن يعلو فوق الجراح ، ويتسامى عليها . فذلك ـ باليقين ـ هو أول الطريق لاحترامنا لانفسنا . ومن ثم ، احترام الاخرين لنا .. اما ان نصدر فى كل مانقوله فى شأن الثورة عن حقد .. او عن ضغن .. او عن رغبة دفينة فى تصفية حسابات قديمة او جديدة . فذلك ـ وباليقين ايضا ـ هو أول الطريق الى السقوط فى هوة التردى .

الدور الذى لعبه القطاع العام ـ بشتى أوجه نشاطاته ـ فى مواجهة الحروب والازمات التى ألمت بنا منـــذ وقع التاميم .. وحتى هذه اللحظة ، يشهد له بالكفاءه وبالمقدرة .. ويفرض علينا دعمه وتحيته وتقديره . بيد ان النجاح الكبير الذى حققه القطاع العام على امتداد الفترة من سنة ١٩٦١ وحتى الآن ، لاينفى القول انه قد لازمته ، ومازال ، شوائب كثيرة .. وربما خطى .. لعلها أن تكون قد غطت ، لدى الكثيرين ، على منجزاته .. وجعلتهم يفقدون الثقة ـ لبعض الوقت أو لكل الوقت ـ فى ان يكون القطاع العام قد حقق نجاحا ما .. ومن ثم ، فقد ارتفعت أصوات كثيرة .. بعضها ينا، بالغائه ، وبعضها ينادى بتقليصه ، وكلها لا تعترف ا باى فضل .

وربما يكون لهؤلاء .. ولاولئك .. شىء من العذر فى ذلك السخط الذى لون مشاعرهم تجاه القطاع العام . فلقد تعددت ، على صفحات الصحف ، صور الشروخ الكثيرة التى نجحت ـ فى غيــاب الحساب والعقاب ـ فى ان تشق لنفسها أكثر من طريق فى ذلك البنـــاء الضخم الذى كان يتعين على الجميع أن يحموه ـ باعتباره ملكا للجميع ـ بكل سواعدهم ، وبكل قلوبهم . فما أكثر ماقرات الجماهير عن انحرافات خطيرة هنا ، وهنالك .. وما اكثر ماقرات الجماهير عن اختلاسات تجـــاوزت الالاف الى الملايين هنا ، وهنالك .. وما أكثر ما قــرات

الجماهير عن شركات خاصة اسسها بعض القائمين بامر القطاع العام من باطن القطاع العام نفسه !! وما أكثر ماقرأت الجماهير عن عمولات بالملايين استحلها لانفسهم عدد من اساطينه .!!

ومن الحق أن نقول أن كثيرا من هذه الانحرافات الخطيرة، او هي كلها ، ماكانت لتقع لو أن اجهزة الحساب كانت مطلقة اليد في سائر مسئولياتها .. ودون ان يصدها عنها شعور لعله ان يكون قد بلغ عندها مرتبة اليقين بأن لا جدوى ، ولا فائدة من وراء جهودها مادام أحد لا يريد أن يحاسب .. ومادام أحد لا يريد ان يعاقب .. ومادام الاعمى قد استوى — في موازين الحساب — مع البصير .. ومادامت الظلمات قد استوت — في نفس هذه الموازين — مع النور !!

لكن ذلك كله — وأن جاز ان يكون عذرا للذين سخطوا على القطاع العام ، وحملهم على أن يرفعوا أصواتهم مطالبين بتقليصه او الغائه — الا أنه لا ينبغى له ان يفقدنا الثقة في قدرتنا على اصلاح ماوقع في بناء القطاع العام من شروخ ، لعلنا لا نجاوز الحقيقة اذا قلنا ان القطاع العام ، في ذاته ، لا يعتبر مسئولا عنها .. بقدر مايعتبر مسئولا عن ذلك بعض قياداته ممن أعوزهم الضمير الوطنى ، وأعوزتهم النزاهة ، واعوزهم الشرف .. فلم يروا في القطاع العام الا أنه « مولد » غاب صاحبه .. ومادام « المولد » قد غاب صاحبه ، فليس ثمة وازع لدى هذا الصنف من القيادات يمنعها من أن تلتهم « الحمص » كله .. و « الحلوى » كلها .!!

***

لكن الاخطاء – وأن طال بها الزمن – فهى ليست فى منعة من العلاج . واحسب ان تباشير هذا العلاج قد بدت مع ذلك الاهتمام الواضح الذى أبداه المسئولون ، فى الاونة الاخيرة ، بوضع تقارير الجهاز المركزى للمحاسبات موضع العناية والاحترام . ولعل هذه التباشير تكون قد بدت أيضا فى تشديد قانون العاملين الجديد على ترسيخ سياسة « الحوافز » .

و « الحوافز » ، فى ذاتها ، لا يمكن أن تكون محل اعتراض من أحد . فالمؤكد أنها مطلوبة ، وضرورية ، بل وحتمية .. اذا ما اردنا للانتاج جودة وللعمل انطلاقا .. ولكن الاعتراض ، كل الاعتراض ، هو على أن تكون رؤساء مجالس الادارات فى تقرير هذه « الحوافز » مطلقة .. لا يقيدها قيد ، ولا يضبطها ضابط . فذلك حرى بأن يحول كل شركة من الشركات الى « عزبة خاصة » .. يصول فيها صاحبها « رئيس مجلس الادارة » ويجول .. ويغدق مايشاء من أموال على من يشاء من أسناده واعوانه ، دون ان يكون لهؤلاء الاسناد والاعوان أى دور حقيقى فى دفع عجلة العمل ، او فى تجويد الانتاج .

ان نظرة واحدة يلقيها أى من الوزراء الذين تقع مؤسسات القطاع العام فى دائرة مسئولياتهم ، على قوائم المكافآت التشجيعية ، ومكافآت الانتاج التى حصل عليها كثيرون ممن يشغلون الوظائف العليا فى كثير من الشركات ، وهم جلوس فى مكاتبهم المكيفة لا يبرحونها ، سوف تصيبهم بدهشة بالغة . ذلك أنهم – أى الوزراء المختصون – سوف يكتشفون ، من خلال هذه النظرة الواحدة ، ان عددا لا حصر له من أصحاب هذه الوظائف

العليا قد حصلوا من « الحوافز » ـ بشتى مسمياتها ـ على « نصيب الاسد » . ولعل بعضهم ان يكون قد حصل من هذه الحوافز على مايعادل راتبه فى سنة .. وربما فى سنتين !! ومستحيل ان يكون هذا عدلا ، ومستحيل اكثر ان يكون حقا .. وانما هو شيء أقرب مايكون الى مانسميه بسياسة : « شيلنى .. واشيلك » .!!

ان خطورة هذه السياسة التى تختصم الذمة ، وتختصم الامانة ، وتختصم الشرف ، لا تتمثل فقط فى أن بعض الناس يحصلون على مالا يستحقون ، وانما الخطورة الفادحة الناجمة عن مثل هذه السياسة انما تتمثل فى انها تصيب الكادحين الحقيقيين بالاحباط ، وبانهيار الحماسة .. فيركنون الى الراحة .. والى التراخى .. بل والى « اللامبالاة » نفسها ، ماداموا يرون ان من لا يعملون ولا ينتجون يحصلون على ناتج عرقهم على مالا يحصلون هم انفسهم عليه ، وتكون النتيجة الحتمية لمثل هذه المشاعر هىانهيار الانتاج ..كما وكيفا!!

ومن هنا .. ولكى يأتى نظام « الحوافز » ـ بشتى مسمياته ـ بثمراته المرجوة ، فلابد من وضع ضوابط ـ بل كثير من الضوابط لسلطات رؤساء مجالس الادارات فى تقرير هذه « الحوافز » .. والا انتهى الامر ـ كما اسلفت ـ الى أن تتحول كل شركة من شركات القطاع العام الى « عزبة خاصة » يغدق رئيسها ما يشاء من مكافآت على من يشاء من أعوانه بغض النظر عن حجم اسهامهم فى الانتاج وجودته او فى العمل وانطلاقه .. وانما النظر ، كل النظر ، الى حجم اسهامهم فى تدعيم اركان سياسة « شيلنى .. واشيلك » .!

ان من حق العاملين فى شركات القطاع العام أن

يستريحوا ، ومن حقهم أن يرفه عنهم ، ومن حقهم ان يرتادوا المصايف .. كالاسكندرية وبورسعيد . وان يرتادوا المشاتى .. كالاقصر واسوان ، ولـكن ... ليس شرطا لتحقيق ذلك ان ينزل هؤلاء العاملون — كما هو حادث الان .. فى كثير من الشركات — بافخـر الفنادق ، وان ينفقوا ابهظ النفقات .. فان الذى يدفع هنا ليس هو الشركات ، بل ان الذى يدفع انما هـو الشعب المطحون الذى تحمله هذه الشركات — عن طريق سلعها ومنتجاتها — ابتداء من رغيف العيش ..ومرورا بقطعة الجبن .. وانتهاء بالتليفزيون الملون ، تـكاليف هذه « الرفاهية » التى لا مبرر لها ، ولا مسوغ .. اللهم الا ان يكون هذا المبرر ، وذلك المسوغ ، هو تجرد بعض قيادات القطاع العام من كل شعور بالامانة نحو « المال العام » الذى لا يخرج ، اولا واخيرا ، عن كونه امانة فى أعناقهم لا يملكون — مهما ابتكروا من معاذير — حـق تبديدها ، ولا العبث بها ، ولا الانحراف بها عن مسارها

ان وضع الضوابط — كثير من الضوابط — على سلطات رؤساء مجالس الادارات فى تقرير نوع ، وحجـم « الحوافز » للعاملين فى مؤسساتهم ، أمر لا يحتمل التراخى فيه ، او التغاضى عنه .. هذا اذا كنا جادين فى حماية القطاع العام من أن يتحول الى « عزبة خاصة » .. واذا كنا لانريد أن تأتى — بعد وقت يطول او يقصر — فنبكى .. ونتفجع .. ونتساءل — حيث لا يجـدى التساؤل — « أين كنا .. عندما تحول القطاع العام إلى عزبة خاصة ؟!! » .

رجل .. فى فوهة المدفع .. !!

لم اكن محتاجا لان اقترب منه ، او ان اقيم معـــه علاقة شخصية ، لكى اعرف أنه واحد من ذلك الطراز النادر من الرجال الذين يعملون فى هدوء وصمت .. وبلا ضجة ولا ضوضاء كتلك التى تحدثها البراميــــل الفارغة .!! فلقد وضعته كفاءته المتألقة .. ووضـــعه علمه وانتماؤه الحميم لمصر وترابها ، على رأس مرفق مصرى خطير ، بل لعله اخطر المرافق المصرية جميعـــا ، ذلك لانه ــ اعنى المرفق ــ مصرى بالمكان .. عالمى بالدور الذى يلعبه . ومن هنا كان العالم ــ ومايزال ــ ولسوف يظل .. يضع عينيه على هذا المرفق راصدا حركته .. نجاحه او فشله .. تأخره او تقدمه ..

واذا كانت كفاءة الرجل المتألقة ، وعلمه وانتماؤه الحميم لمصر وترابها ، قد جعلت ثورة ٢٣ يوليو تضعه على رأس أخطر مرفق مصرى ــ عالمى ، فلقد وضعه قدره ، ومعه مرفقه الخطير هذا ، فى طريق المعارك . فكان كلما اندلعت على أرضنا حرب ، وجد نفســه ، ومرفقه معه ، فى قلب المعركة .. لا بل فى فوهـــة المدفع !!

لكنه ، فى كل مرة وضعه قدره فيها فى قلب المعركة .. وفى فوهة المدفع ، لم يكن ينكفىء على نفسه .. واضعا يده على خده حزينا آسفا .. فى انتظار ساعة

يتوقف فيها الحرب لكي يعود فيعمل ، بل كان يتحول — وفي سرعة مذهلة — ومعه رجاله ، وترساناته ، وورشه ، وكل الادوات التي بين يديه الى خدمة الحياة المدنية بنفس المقدرة ، بنفس الكفاءة ، بنفس الحماسة المبهرة التي كان يخدم بها العالم ، شرقه وغربه على السواء ، قبل أن تضعه المعارك في فوهة المدفع .!!

لقد اغلقت « قناة السويس » — ذلك المرفق المصرى العالمى الخطير — اغلقت في أعقاب حرب ٦٧ ثمـــانى سنوات كاملة . ثم عادت في سنة ٧٥ لتستأنف دورها العتيد في خدمة العالم .

ولكن ... هل عادت « قناة السويس » الى ما كانت عليه قبل اغلاقها ؟

انها لو كانت قد عادت الى مثل ماكانت عليه ، قبـــل اغلاقها ، لكان ذلك — في حد ذاته — انتصارا رائعـــا لذلك « المايسترو » النادر المثال .. الذى يقود نخبـــة مختارة من ابناء مصر ، احسبهم قد قطعوا على انفسهم عهدا بأن يبهروا العالم بما في مقدورهم ان يفعلوه بين العثرة .. والعثرة !!

لكن « قناة السويس » لم تعد الى مثل ماكانت عليه .. بل عادت الى احسن مما كانت عليه عرضا وعمقا .. وراحت تستقبل الناقلات العملاقة .. نفس الناقـــلات التى بناها أصحابها بهدف الاستغناء بها عـــن « قنـــاة السويس » التى كانت ، قبل اغلاقها ، عاجزة عن استقبال مثل هذا النوع من الناقلات .

فهل تم ذلك الانجاز الهائل فجأة .. وساعة ان تقرر أن تفتح القناة ذراعيها لتستقبل ، من جديد ، سفن العالم . ؟!

مستحيل طبعا .. فمثل هذا الانجاز الهائل ، بكل المقاييس ، لابد وأن تسبقه دراسات مضنية ، وسهر طويل ، وجرى هنا وهناك للالتقاء بالخبراء من كل لون وجنس ، قبل أن يستقر الرأي — أخيرا — على من سوف يأتي منهم ليخلط عرقه بعرق الجباه المصرية الاصيلة ، والقادرة — دائما — على صنع المعجزات حين يضعها قدرها في موضع الاختبار .

ولن يكون بناء « السد العالى » .. واقامة « مجمع الحديد والصلب » ونسف « خط بارليف » في ساعات ، من الوجود .. وشق « نفق الشهيد أحمد حمدى » .. لن يكون ذلك كله هو آخر المعجزات التى تستطيع العقول المصرية ، والسواعد المصرية ، أن تحققها !!

***

ولان نجاح المهندس « مشهور أحمد مشهور » ، ذلك « المايسترو » النادر المثال ، كان رائعا وباهرا .. فقد كثرت التساؤلات حول أسرار ذلك النجاح الرائع ومفاتيحه .

وفي الاسبوع الماضي — وبمناسبة الذكرى الثامنة لاعادة فتح القناة — سألوه صراحة ، ومباشرة ، عن هذه « المفاتيح » .. وتلك الاسرار . فجاءت اجاباته قاطعة الدلالة على مدى ابتعاده عن « الانا » القاتلة .. وقاطعة الدلالة أيضا على ايمانه بالانسان ، وبما يستطيع أن يفعله .. وكيف انه — اى الانسان — قادر

على ان يصنع المعجزات .. متى وجد من يؤمن به ، ويعطيه بقدر ما يأخذ منه ، ويضع انسانيته قبل اى اعتبار .. وفوق كل اعتبار .

● قال « مشهور » ، وهو يقدم للناس مفاتيح نجاحه: « الحقيقة – امام الله – أن نجاح العمل فى هيئة قناة السويس لا يرجع الفضل فيه الى شخص واحد . ولكن يرجع الفضل فيه لاكثر من ١٤ الف شخص هم مجموع العاملين فى الهيئة .. وكل واحد منهم ساهم بنصيبه فى هذا النجاح دون أن يبخل بأى جهد .. اننى اعترف ان الجهد الصامت ، وارادة التحدى التى ملأت نفس كل واحد منا ، كانت هى « مفتاح المفاتيح » .. فاذا أردت لاى عمل أن ينجح ، فلابد ان نزرع – اولا – فى قلب كل رجل ارادة التحدى .. تحدى الفشل .. تحدى الصعوبات .. تحدى قلة الامكانيات .. تحدى الروتين . تحدى اليأس . والانسان يجب ان يدخل معركة ، او معارك من هذا النوع ، وينتصر .. واعترف ان رجالى – كلهم – أنتصروا فى معارك التحدى وكانت – للحق – معارك كثيرة واجهنا فيها الخطر ، وواجهنا القلق ، وأحيانا كنا نواجه « الموت نفسه » ..

● وقال « مشهور » : لقد كنت أثناء فترة اغلاق القناة ، اتابع من خلال اجهزة الهيئة ، التطورات التى تجد فى العالم كله .. وكنا نعمل كما لو كانت القناة تعمل . ومن هنا شهدت القناة ملحمة التغيير ... ثم ملحمة التطوير ، دون اى عثرات .

اننى لا أزهو بأحدث المعدات التى تستخدمها الهيئة . ولكنى أزهو – أكثر – بالرجال الذين يعملون على هذه

المعدات وبتقديرابهم ، ان الانسان عندى أهم من أى آلة في العالم .. وهو عندى أغلى من أى كمبيوتر في العالم ، ولو أنك ركزت اهتمامك بالانسان ، واعطيته من وقتك ، ومن رعايتك ، ولم تبخل عليه .. فسوف يعطيك بدوره الكثير .. بل اكثر مما تتخيل .

● وقال « مشهور » : لدى ثقة كاملة في ان العلماء المصريين من أكفأ العلماء في العالم ، ولكنهم يحتاجون الى شيئين : التقدير أولا .. والإمكانات ثانيا .. ولانى أهتم اهتماما خاصا بالجانب الانسانى أكثر من الجانب المادى ، فقد أعطيت للعلماء العاملين بالهيئة الشيئين معا: التقدير والامكانات .فاعطونى نتائج تشرف مصر كلها .

● وقال « مشهور » : العامل عندنا لا يخرج الى المعاش في صمت .. ولكن كل عامل عاش في القناة ، وشهد معاركها ، وشارك في هذه المعارك .. واصبحت القناة عمره ، وحبه الكبير ، لابد أن يخرج الى المعاش ولديه الشعور ان جهده لن يطويه النسيان . ولهذا نقيم احتفالا للمحالين الى المعاش ، لا نكتفى فيه بتكريمهم ، وانما تحل فيه أية مشاكل تكون موجودة لدى أى واحد منهم .. ان مفتاح اى نجاح هو « الانسان » .. الانسان أولا .. والانســـــان اخيرا .. وبعـــد ذلك كل شيء يهون .

وبعد .

لقد اكبرت هذا الرجل .. هذا « المايسترو » النادر المثال ــ أكبرته مرتين : المرة الاولى عندما التقيت به مصادفة وكنا ــ المحامى والانسان العظيم النبيل المرحوم عبد الفتاح حسن وأنا .. نغادر مكتبه ، فــوجدناه

واقفا ينتظر المصعد الذى كنا نهبط به ، وبعد ان تصافح الرجلان ، قام المرحوم عبد الفتاح حسن بتقديم كل منا للاخر .. وجدته بسيطا ، ومتواضعا ، وودودا كفلاح مصرى أصيل . وعلى الفور ، قفزت أمام عينى صورة الشجرة المحملة بالثمر .. انها تتجه بغصونها وثمارها نحو الارض .. على العكس تماما من الشجرة العقيم من اى ثمر ، فانها تتعالى بنفسها نحو السماء .!!

اما المرة الثانية التى اكبرت فيها « مشهور احمد مشهور » فكانت يوم أن اعتذر — وباصرار — عن تولى منصب الوزير عندما عرضه « السادات » عليه .. فكثيرون جدا من الناس يتطلعون الى هذا المنصب ، ويتهافتون عليه ، ويضحون — فى سبيله — بمواقع ذات شهرة عريضة*، وكسب مادى وفير .. لكنه — استثناء من هؤلاء الكثيرين الذين يسيل لعابهم تطلعا الى هذا المنصب — لم يتردد لحظة فى رفضه .. وآثر عليه — وفى اصرار — حبه الاول والاخير .. قناة السويس !! على الرغم مما يجره عليه هذا الحب من متاعب واهوال فى طليعتها انه يضعه — بين كل آونة واخرى — فى قلب النيران .. وفى فوهة المدفع !!

سلام على جامعات العمالقة .. !!

سلام على جامعات لطفى السيد وطه حسين واحمد أمين .

سلام على جامعات على مشرفة وعبد الرازق السنهورى وعلى ابراهيم .

سلام على جامعات حلمى بهجت بدوى ومصطفى القللى وعبد الوهاب عزام .

سلام على أيام كانت فيها ساحات جامعات مصر مقدسة .. تماما كساحات القضاء ، لا نكاد نسمع منها .. ولا نكاد نسمع عنها .. لغوا ولا تأثيما .

سلام على ايام كان فيها « رئيس الجامعة » .. وايضا « استاذ الجامعة » مهيبا وجليلا ومنيعا على كل ذى سلطان ، وعلى كل ذى صلة بالسلطان من قريب او بعيد .

أما اليوم .. فليس يملك الفرد ــ وهو يقرأ ، ويسمع ، بما يجرى وراء جدران الجامعات .. وفى دهاليزها .. وخلف كواليسها ــ الا ان يضرب كفا بكف .. ويتساءل فى مرارة ، وايضا فى ذهول : ماذا جرى للجامعات ؟!

نعم .. ماذا جرى للجامعات ، حتى أصبحنا لا يكاد يمر علينا يوم دون أن نسمع فيه بفضيحة من نوع ما ،

تدور فصولها فى اروقة واحدة منها ؟!

وليت هذه الفضائح التى اخذنا نقرأ عنها ، ونسمع بها فى الاونة الاخيرة — ليتها كانت محصورة فى دائرة « الطلائع » ممن سوف يصبحون ، غدا ، اساتذة الجامعات .. نعم ليتها كانت محصورة فى دائرة المعيدين والمدرسين المساعدين ، والمدرسين .. اذن لهان الخطب قليلا .. ولالتمسنا لهؤلاء العذر من جموح شبابهم ، ومن ضآلة تجاربهم ، ومن تعجلهم — الطبيعى — لبناء مستقبلهم وتحقيق طموحاتهم .

ولكن مايجعل الخطب جللا ، والمصيبة فادحة ، هو ان تلك الفضائح الجامعية التى اخذنا نقرأ عنها ، ونسمع بها ، لا تتصل — من بعيد أو قريب — بهؤلاء « الطلائع » وانما تتصل — وهنا مكمن المرارة والحسرة والفزع — بالقمم من سدنة الجامعات .

فلقد قرانا ، من قبل ، عن رئيس واحدة من جامعاتنا الاقليمية طلب اليه أن يستقيل من منصبه الخطير .. بعد أن ثبت ضده انه قبل من احد المتعاملين مع الجامعة جهاز تليفزيون .. او جهاز « فيديو » ، لا فرق !!

ومن قبل — ايضا — سمعنا لغطا خطيرا يدور حول تصرفات رئيس جامعة اقليمية اخرى . ولقد رددت هذا اللغط الخطير نائبة — تحت قبة مجلس الشعب ، وانبرى رئيس الجامعة للدفاع عن نفسه . وصدق كثيرون دفاع الرجل عن نفسه ، لكن كثيرين غيرهم لم يصدقوه ، تاسيسا على انه مستحيل ان تاتى كل هذه التهم من فراغ .. وانه مستحيل ، ايضا ، ان يكون هناك دخان بغير نار ! وبين هؤلاء واولئك بقيت سمعة الرجل ،

وسمعة جامعته معه ، مثخنة بالجراح ..!!

وان هى الا ايام حتى جاءت ثالثة الاثافى .. جاءت متمثلة فى عميد احدى كليات جامعة المنصورة . كشفت الرقابة الادارية عن قيامه بافتتاح مكتب تنسيق خاص به ، راح يقبل عن طريقه كل الذين لا تؤهلهم مجاميع درجاتهم للالتحاق بأية جامعة .. وذلك نظير دفع « المعلوم » الذى لم يكن يقل عن الف جنيه !!

مصيبة كبرى .. واهدار قاتل لكل المبادىء والقيم ، وعلى رأسها مبدأ تكافؤ الفرص بالنسبة لاولئك الذين يعتمدون على جهدهم وحده ، وعلى سهرهم وحده ، فاذا بهم يتساوون مع المستهترين والكسالى والفاشلين .. لمجرد ان آباء هؤلاء يملكون ألف جنيه يقدمونها للدكتور العميد .. وما اكثر الذين أصبحوا ، فى هذه الايام الرديئة ، يمتلكون بدلا من الالف جنيه الواحدة عشرات ، بل ومئات الالاف من الجنيهات .. دون أى جهد ، ودون أى عرق ، ودون أن يكون فيهم من يساوى جنيها واحدا مما صاروا يملكون .!!

ولقد بادر رئيس جامعة المنصورة الى ايقاف « الاستاذ .. الدكتور .. العميد » عن العمل واحالته الى التحقيق . نشرت ذلك النبأ الفجع ، بكل تفاصيله ، صحيفة معارضة . ومر يوم واحد فحسب ، واذا بصحيفة « الاهرام » الصادرة بتاريخ الأربعاء ١٨ مايو تطالعنا ، فى صفحتها الاولى ، بنبأ يقول : « ان رئيس جامعة المنصورة أصدر قراراً بايقاف امين عام الجامعة واثنين من اساتذة كلية الهندسة عن العمل واحالتهم الى المجالس التأديبية المختصة بعد ان وجهت اليهم النيابة

الكلية بالمنصورة تهمة الاضرار العمد بالمال العـــام .. والتكسب من الوظيفة واختلاس اموال الجامعة » !!

وقبل كل هؤلاء قرأنا عن أستاذ الطب الذي حول بيته الى «مشرحة خاصة » وراح يعطي طلابه الـــدروس الخصوصية بآلاف الجنيهات !! وكأن مايتكسبه مـــن مهنته لا يكفيه .. على الرغم من أن مهنة الطب قـــد تحولت في أيدي بعض من يمارسونها الى نوع من التجارة يعتبر من اكثر أنواع التجارة ادرارا للربح الحلال .. او الحرام .

فأى خطب فادح هذا الذي حل بساحات جامعاتنا التي كانت في الثلاثينات والاربعينـــات ، وحتى في الخمسينات ، نظيفة ، ومهيبة ، وجليلة ؟!

ومن ياترى المسئول عن هذا الخطب الفادح الذي حل بجامعاتنا التي كانت ، حتى الأمس القريب ، مقدسة كساحات القضاء سواء بسواء ؟!

● هل هي النظم المعمول بها اليوم ، والتي جعلت من يستحق .. ومن لا يستحق ــ مادام قادرا على التسلق كشجرة اللبلاب ــ قادرا ، بالتالي ، على الوصول الى قمة القيادة في الجامعات ؟!

● أم هي الطريقة التي أضحينا نختار بها رؤســـاء الجامعات ونوابهم ، والتي تعتمد ــ اساسا ــ على مدى اتصال هؤلاء ، واولئك ، بمواكب السلطان ؟!

● وهل اصبحت هذه الطريقة هي الفيصـــل في اختيار الرجال لهذه المناصب التي لا يصلح لها ــ بالقطع ــ الا ذوى العلم والعفة والصلابة والكبرياء ؟!

● أم ان المسئول عن هذا كله هو ذلك « الهـــرم

المقلوب » الذى أوحى لكثير من ضعاف النفوس فى كل مجال ، وليس فى مجال الجامعات فحسب ، بمحاولة اللحاق ، من أى طريق .. وبأى طريق .. بملوك الانفتاح وصعاليكه .

أية مصيبة هذه التى حلت بنا واجتاحت ، بين كل ما اجتاحت من قيمنا ورموزنا ، ساحات الجامعات ؟!

واين ، آذن ، يجد شبابنا القدوة .. والمثل الاعلى .. اذا كان الذين يفترض فيهم انهم « القدوة » .. وانهم « المثل » يتساقطون امامهم تماثيل محطمة على هـــذا النحو الاليم .. وبهذه الصورة المفجعة ؟!

على اننا لا ننكر ــ ونحن نتساءل : متى .. وكيف .. ومن هو المسئول عن هذا الخطب الفـــادح الذى نزل بساحات الجامعات ــ ؟! لا ننكر ، مطلقا ، ان بين صفوف أساتذة الجامعات ــ كبارهم وشبابهم على السواء ــ يوجد كثيرون .. وكثيرون ــ جديرون حقا بكل الثقة .. وجديرون ايضا بكل الاكبار والاحترام . لكنهم للأسف الشديد محاصرون .. محاصرون بكل أسباب المرارة ، والتعاسة ، والاحباط التى ينشرها فى طريقهم آخرون يحملون فى مقدمة مؤهلاتهم ، كل خصائص « شجرة اللبلاب » .. وبالتالى ، فهم يتسلقون .. ويتسلقون . ويتسلقون .!!!

فهل من منقذ ؟!

هل من منقذ يعيد الى جامعاتنا قداستها ، وجلالها ، وكبرياءها ، وارتفاعها بنفسها ، وبقيمها ، فـــوق أى انحراف .. وفوق كل انحرف ؟!

لتكن نقطة البدء ، هنا ، محاولة جادة .. مخلصـــة

وواعية لتحصين تلك الصفوة من رجال مصر ضد سموم ذلك « الهرم المقلوب » الذى ــ فى ظله ــ ذهب أهل القمة الى القاع .. وصعد أهل القاع الى القمة !! والذى اضحى مستحيلا ــ فى ظل وجوده واستفحال شروره ــ ان يحتفظ كثيرون بنقائهم .. وبطهارتهم وبنظـــافة أيديهم .

وليس بجائز لنا ، ونحن نفكر فى هذا كله ، ان ننسى تلك العبارة المتلئة صراحة وصدقا ، والتى قالها واحد من الاساتذة الكبار فى كلية الحقوق بجامعة الاسكندرية للرئيس الراحل انور السادات عند اجتماعه بهم فى ناديهم ــ قال له ، وهو يحدثه عن الاوضاع الماليـــة لاساتذة الجامعات : ((**نحن ياسيادة الرئيس نكتفى بالفرجة على الفاكهة ، بينما آخرون انت تعرفهم يشترونها بالصناديق**)) !!

نعم .. هل من منقذ للجامعات مما هى سائرة اليه ، بفضل مانشره فى مجتمعنا « ملوك الانفتاح وصعاليكه »، من سلوكيات مدمرة كفيلة بأن تأتى على المجتمع كله ، من اساسه ، وليس على الجامعات .. وأساتذة الجامعات .. وحسب .

أنهم يقتلون الشعب .. !!

أوشك ان يكون مستحيلا ، هذه الايام ، ان تطلع علينا صحف الصباح دون ان تحمل الينا خبرا .. أو اخبارا عن قيام السلطات بضبط كميات هائلة من المخدرات بكل صنوفها والوانها القاتلة : فمن هيروين .. الى كوكايين .. الى حشيش .. الى افيون .. الى حبوب من كل صنف — وهي في طريقها الى أبناء الشعب لكي تدمر طاقاتهم ، وتستذل ارادتهم ، وتفنى أجسادهم ، وتحولهم الى عبيد أرقاء لهذا النوع أو ذاك من انواع هذه المخدرات القاتلة التي لابد وان تحيلهم — طال الوقت ام قصر — الى مجرد أشباح لا تقوى على شيء .. ولا تملك من ارادتها مايجعلها قادرة على أن تفعل شيئا .. اللهم الا المزيد من السقوط في مهاوي الضياع والجريمة والتشرد .

ولقد بات واضحا — وضوح الشمس — ان المسألة لم تعد مسألة تجارة شريرة .. يمارسها رجال شريرون .. ونساء شريرات . وانما المسألة أشد فداحة وخطرا من ان تكون كذلك . فان ضخامة كميات المخدرات ، من كل صنف ولون ، التي تقوم السلطات المسئولة بضبطها كل يوم تقريبا وهي في طريقها الى

داخل البلاد : اما بالبحر .. او بالبر .. او بالجو .. انما هى مؤشر خطير .. خطير .. يصرخ فينا بأعلى الصوت : **« ان شعبنا اضحى مستهدفا بهذا النوع من « القتل البطىء » الذى يحول « قوته الضاربة » المتمثلة فى شبابه .. وفى صناعه وعماله .. الى مجرد قوة مهزومة من داخلها .. وعاجزة ، كل العجز ، عن العمل .. وعن الانتاج .. وعن العطاء الحقيقى .. ايا كانت صور العطاء واشكاله . »**

وما اظن انه بغائب عن وعى الواعين منا ان هذه الهجمة الشرسة من هجمات « الموت الاسود » الذى تحمله معها تلك الكميات الهائلة من المخدرات المتدفقة ، من كل صوب على بلدنا .. قد جاءت متزامنة مع دعوة جادة .. صادقة ومخلصة .. لزيادة الانتاج فى كل موقع وفى كل مصنع .. فى القطاع العام ، وفى القطاع الخاص ، وفى كل مكان تدور فيه عجلة عمل . ومستحيل ان يكون هذا « التزامن » بين هذه الهجمة الشرسة من هجمات ذلك « الموت الاسود » وبين تلك الدعوة الحارة .. الصادقة والمخلصة .. لزيادة الانتاج ، قد جاءت مصادفة أو اعطباطا .. وانما هى ــ وبالقطع ــ مخطط شرير .. مرسوم ومدروس .. ومتحددة ــ عند من رسموه ودرسوه ــ كل مراميه .. وكل اهدافه وابعاده !!

ومتى كان الامر كذلك ــ وكل المؤشرات تقطع بانه لكذلك ــ فلابد ، اذن ، من اجراء يتناسب فى شراسته وهذه الهجمة الضارية التى يشنها « تجار الموت » على قوتنا الضاربة » .. على شبابنا وعمالنا وصناعنا .

ان القانون الالهى صريح ، كل الصراحة ، فى ان « من

قتل يقتل » .. كما ان القانون الوضعي صريح هو الآخر، كل الصراحة ، في ان « من قتل يقتل » . واذن فلا ينبغي ان يكون هنالك تردد ، ولا شبه تردد ، في تطبيق عقوبة « الاعدام » على كل من يضبط متلبسا بتهريب المخدرات الى داخل البلاد،او بالاتجار فيها .. وعلى ان يتساوى في الخضوع لهذه « العقوبة الرادعة » من يحاول ان يهرب او يتاجر في جرام واحد بمن يحاول ان يهرب او يتاجر في الف جرام .. فكلاهما ، بالتأكيد ، قاتل .

وفي يقيني انها لن تكون غير مرة .. مرة واحدة .. او مرتين على اكثر تقدير .. يحكم فيها — ومعجلا — باعدام واحد او اكثر من هؤلاء الذين يحترفون ممارسة جريمة « القتل البطيء » في ابناء شعبنا ، حتى ينقطع دابر كل شيء .. ويتوقف — مرغما — ذلك الاعصار الجارف الذي يستهدف « قوتنا الضاربة » في صورة مخطط شرير .. مرسوم ومدروس .!!

لقد فعلها « سيكوتوري » ، من قبل ، في غانا . جعل « الاعدام » جزاء وفاقا لكل من يتجر في المخدرات .. وايضا لكل من يتعاطاها ، فحمى بذلك شعبه من السقوط في مهاوي الهلاك . وفي نيجيريا ، أخيرا ، قضت احدى المحاكم باعدام آمرأة ضبطت وفي حوزتها كمية من المخدرات . فهل يعقل ان نكون نحن اقل حرصا على قوة وعقول وابدان ابناء شعبنا من غانا .. ومن نيجيريا ؟!! ومن المؤكد أن أيا من الشعبين : الغاني .. والنيجيري .. لا يمكن أن يكون مستهدفا ، من قبل « تجار الموت » ، بمثل مانحن مستهدفون . فان «مصر» قوة .. قوة لها وزنها ، ولها خطرها ، ولها تأثيرها الذي

يدرك هؤلاء المخططون الشريرون انه ، وان كان قد غاب لبعض الوقت ، فانه لن يغيب كل الوقت ، ولن يغيب الى الابد . ومن هنا كانت « مصر » .. وكانت « قوتهـا الضاربة » ممثلة في شبابها ، وفي عمالها وصناعها ، مستهدفة .. ولسوف تظل « مصر » مستهدفة من هؤلاء الشريرين الذين يخططون ، ويدبرون ، لقتلها .. بقتل طاقات وارادات وعقول أبنائها . نعم انهم — وبكل سبق الاصرار والتعمد — يقتلون الشعب .. فاقتلوهم قبل أن يقتلوا الشعب .. ولا تأخذكم بهم ذرة من رحمة . فليس ثمة رحمة بمن لا يرحم . وليس ثمة رحمة لم يحاولوا — وعن أصرار وتعمد — قتل! شعب بأكمله .

عبد الناصر .. المفترى عليه
والمفتـرى علينـــا .. !!

تحت هذا العنوان المثير ، نشر الكاتب الكبير « انيس منصور » . . سلسلة من المقالات خلاصتها جميعا : « ان عبد الناصر كان طاغية . وكان ظالما . وكان يتلذذ باذلال الناس وآهدار كرامتهم . وكان « ماركسيا » . ولانه كان « ماركسيا » فقد كان « كافرا » لا يؤمن بالله ، ولا برسله، ولا بكتبه . وانه قبل هذا كله . . او بعد هذا كله . . قد ذبح « مصر » وشرب من دمائها . . ولم يتردد فى أن يقف بقدميه فوق جثتها . . لكى تطول قامته اكثر ، وترتفـع أكثر !! وانه فى خلاصة الخلاصة . كان تجســيدا لثلاثة من اشهر الطغاة الذين عرفهم تاريخنا المعاصر . . وهم : « هتلر » . . و « موسولينى » . . و « سالازار » وثلاثتهم ــ كما هو معروف ــ اشقوا شعوبهم ، واذلوها ، واضاعوا كرامتها وعلموها كيف تخضع . . وكيف تخنع ، وكيف تسير وراءهم مثلما يسير « القطيع » وراء زعيمه !!

ولا جدال فى ان « انيس منصور » حر تماما فى ان يرى « عبد الناصر » على الصورة التى يجب ان يراه عليها . ولكن . . لا جدال أيضا فى ان عشرات الملايين من الناس . . هنا فى مصر . . وفى سائر الارض العربية على طول امتدادها من المحيط الى الخليج . . لا يشاركونه هذه « النظرة » ولا يرون فى « الصورة » التى يحاول ، بقلمه البارع . . والرشيق . . والمطيع له الى ابعد حدود

الطاعة ، ادنى شبه من « الرجل » الذى عرفوه .. واحبوه .. وراوا فيه « رمزا » لبداية تحررهم من نير الاستعمار .. ومن نير الاقطاع .. ومن نير تسلط رأس المال على مصائر العباد ، ورقاب العباد !!

ولقد يكون هؤلاء الملايين من البشر .. هنا فى مصر .. وفى سائر الارض العربية على طول امتدادها من المحيط الى الخليج .. على حق فى نظرتهم هذه الى « عبدالناصر » وقد لا يكونون .. لكن هذا لاينفى ، مطلقا ، ان هـذه « النظرة » قائمة .. وانها موجودة .. وانها ربما تكون قد ازدادت قوة بفضل تدافع كثير من الاحداث المؤسفة والمحزنة ، والمريرة التى اتخذت من سائر الارض العربية على طول امتدادها من المحيط الى الخليج ، مسرحا تدوى فى جنباته .. وتهز كيانه وبنيانه بتلك الصورة المروعة التى جعلت هذه الملايين من اصحاب هذه « النظـرة الخاصة » الى « عبدالناصر » لا يبرحون يرددون : « انه لو كان بيننا .. لما جرى شىء واحد من كل ذلك الذى يجرى ، ولما استطاع « اقزام » لا هم فى العير .. ولا هم فى النفير أن يجترئوا على « مصر » بمثل ما اجترأوا عليها بالامس .. واليوم .. وكل يوم !!

هكذا يقول هؤلاء الملايين من البشر . ولقد يكونون . ايضا ، على حق فى هذا الذى يقولونه .. وقد لايكونون .. لكن المؤكد أنهم يقولونه .. وهم يقولونه ليس عـن حماس فحسب .. وانما عن ايمان حقيقى ، واقتناع صادق .

واعود بعد هذا الى تكرار القول : ان « انيس منصور » حر تماما فى اختيار « النظرة » التى يحب هو شخصيا ،

ان ينظر بها الى « عبد الناصر » . كما انه حر تماما فى اختيار « الصورة » التى يحب هو شخصيا ان يصوره عليها . ولكن .. بشرط ، وهو ان لا تأتى هذه «النظرة» ولا هذه « الصورة » متناقضة تناقضا كبيرا ولا صغيرا مع « نظرة اخرى » سبق ان نظر بها ، هو نفسه الى « عبد الناصر » ولا مع « صورة اخرى » سبق له هو نفسه ان رسمها لعبد الناصر .. الامر الذى يضع قراءه الكثيرين ، والمنتشرين فى طول الارض العربية وعرضها ، فى حيرة بالغة من امرهم حينما يقرأون لكاتبهم الكبير .. والاثير .. مايقوله اليوم فى « عبد الناصر » .. ثم يتذكرون ماقاله فيه ، بالامس الذى لم يزل قريبا جدا .. ولم يغرق ، بعد ، فى « بحور النسيان » .. وماقاله « أنيس منصور» بالامس القريب ، فى « عبد الناصر » هو هذا :

●● « لقد كبر الشعب كله مع « عبد الناصر » لم يكن للناس حساب ، فأصبح لهم حساب . لم يكن للكرامة الانسانية وزن ، فصار لها وزن ، ولم يكن من حق احد ان يتكلم عن الحق ، فأصبح من حق كل انسان ان يناقش الحق . والعدل . والوحدة . والتضامن والتماسك فى الداخل والخارج . ولم يكن هذا الوطن ملكا لاهله ، فأصبح ملكا للجميع ..

« وكان « عبد الناصر » واجهة شريفة .. ومشرفة لمصر وللعالم العربى .. وكانت « مصر » صغيرة ، فأصبحت كبيرة ، وكانت واحدة فى الدول ، فجعلها « عبد الناصر» قاعدة للحرية .. ومطارا للثورات .. وحصنا امينا لكل صاحب رأى ، أو صاحب فلسفة ، فمن دخلها فهو آمن على نفسه .. وعلى رأسه » !!

هذا ماقاله « انيس منصور » بالامس القريب في « عبد الناصر » وليس من شك في ان قراءه الكثيرين .. والمنتشرين في طول الارض العربية وعرضها سوف يتوقفون طويلا أمام كلماته الواضحة هذه .. التى ليس بها ادنى ألتواء ولا عوج .. وقد استبدت بهم الحيرة ، واستبد بهم التساؤل : اى القولين في « عبد الناصر » نصدق ، وايهما نكذب . ايهما نأخذ ، وأيهما ندع . بأيهما نؤمن ، وبأيهما نكفر ؟!!

ولست أعرف ، حقيقة ، بماذا احيب على تساؤلات هؤلاء القراء . لكننى واثق من أن « انيس منصور » يعرف .. وهو قادر ، بالتأكيد على ان يجيب ..

على آن اغرب ما أرتضى الكاتب الكبير ان يقوله عن « عبد الناصر » ، فى معرض النيل منه . والتعريض به ، هو ماروآه نقلا عن الرئيس السورى الراحل « شكرى القوتلى » من أن المغفور له الملك محمد الخامس ملك المغرب ، رأى والد « عبد الناصر » أثناء احتفال اقامه لتكريم الزعيم الروسى « خروشوف » ينحنى على يد ابنه .. ويقبلها !!

ويكمل « انيس منصور » روايته قائلا : وسكت الرئيس والملك .. ثم عاد الملك يهمس فى اذن القوتلى: ان رجلا يفعل هذا مع والده .. فما الذى لن يفعله مع بقية خلق الله ؟!!

آنها رواية مستحيل أن يكون هناك عقل ـ مهما بلغ من سذاجة ـ مستعد لان يصدقها . نعم .. مستحيل ان يكون هناك عقل مستعد لأن يصدق انه يوجد على الارض أب يرتضى لنفسه أن ينحنى على يد

ابنه ويقبلها . كما أنه مستحيل . بنفس الدرجة ، أن يوجد على الارض ابن يرتضى أن ينحنى ابوه على يده ويقبلها . ويشهد الله أننى رايت بعينى راسى اكثر من لقاء لعبد الناصر مع ابيه . ولم يحدث مرة انى رايت احدهما يقبل يد الآخر .. وانما كنت ارى احتراما عميقا ومحسوسا وملموسا من كلا الطرفين للآخر .. وبغير تزيد ولا افتعال ولا اسراف !!

ولست أدرى كيف ارتضى عقل ذكى ومتوهج مثل عقل « انيس منصور » أن يصدق مثل هذه الرواية التى استطيع ان اقطع بأن أحد رواتها كاذب ولن يحتضنها ، ويتبناها ، ويتحمل أمام الناس .. وامام نفسه .. وضميره .. مسئولية اذاعتها ومسئولية نشرها !!!

لكن الشىء الذى قاله « انيس منصور » .. واعتصرنى حزنا وأسى ، اكثر من اى شىء آخر قاله فى شخص « عبد الناصر » ، هو ذلك الذى قاله عن أهله .. وقومه .. عن « فلاحى مصر » الذين يتكون منهم بغير مغالاة ثلاثة ارباع الشعب المصرى . قال « انيس » :

● كان عبد الناصر على حق عندما جعل نصف أعضاء مجلس الشعب من الفلاحين الذين نشأوا فى الريف يحنون رءوسهم للعمدة الجالس على المصطبة .. ويضربهم « بالجزمة » فيقولون له : ضربك شرف ياعمدة !!

هل كان هذا يحدث يا انيس .. ؟!!

هل كان « العمدة » يضرب أهلك .. وقومك ..

وشعبك « بالجزمة » فيقولون له : « ضـــربك شرف بأعمدة » ؟!!

وهل آلى هذا آلمدى نجح « جرحك الشخصى » من « عبد الناصر » .. وسخطك الشخصى عليه فى ان يجـــرك — وانت الذكى الاريب — آلى كل هـــذه المحاذير ؟ !!

على كل حال ، فلنسلم جدلا بما لا يصح ، ولا ينبغى ، ولا يجور ، أن نسلم به .. وهو : « ان العمدة فى وقت ماكان يضرب اهلنا . وقومنا «بالجزمة» فيقولون له : « ضربك شرف باعمدة » . نعم فلنسلم جدلا بما لا يجوز .. ولا يصح .. ولا ينبغى ان نسلم به ثم لننظر ماذا يحدث اليوم على طول ارض مصـــر وعرضها ؟!

ان احداً لا يجرؤ . ولا يقدر . ولا يستطيع ان يمد يده ، — وليس جزمته — الى راس .. او الى وجه .. أصغر « فلاح » او اصغر « عامل » .. لقـــد صار ذلك شيئا مستحيلا .. او لعله صار شيئا دونه قطع الرقاب . واذا كان يوجد على ارض مصر كلها «انسان» يرجع آليه الفضل الأول .. والاخير .. فى هذا التحول الانسانى — والاجتماعى — الكبير — والخطير — والعميق .. فلن يكون هذا « الانسان » غير « عبد الناصر » نفسه ولا احد سواه ..

الا اننى على الرغم من ذلك كله لا اشارك الشاعر نزار قبانى « كذبه الشعرى » .. واقول معـــه : شاعر العراق العظيم « مهدى الجواهرى » صـــــدقه « ان عبد الناصر كان آخر الانبياء » !! لكننى اقاسم

شاعر العراق العظيم « مهدى الجواهرى » صدقه الشعرى .. واقول معه : « ان عبد الناصر كان انسانا .. وكان انسانا عظيم الامجاد .. عظيم الاخطاء » .

وبين هذين القوسين الواقعيين : « الامجاد » و « الاخطاء » تنحصر شخصية الرجل ، وينحصر دوره ، وينحصر بالتالى أو ينبغى أن ينحصر ، تحليله وتقويمه ... ووضعه بايجابياته وبسلبياته معا ، وليس بايجابياته وحدها ، ولا بسلبياته وحدها ، فى مكانه الطبيعى بين « صناع التاريخ » .. أما كيل الشتائم له بذكاء او بغير ذكاء .. بفظاظة او بأناقة .. فذلك أمر فى مقدور أى انسان ان يفعله .. دونما أى ضرورة لان يكون كاتبا كبيرا . ولا صاحب قلم ذكى ورشيق .. مثل قلم « انيس منصور » !!

حرية الصحافة .. وحوار النجوم .. !!

على يمين الصفحة الثالثة من جريدة « الاخبار » .. وعلى يسارها .. جرى حوار لم يتواصل ، بين نجمين لامعين من نجوم القلم : « جلال الدين الحمامصى » .. و « محمود عبد المنعم مراد » . وكانت « حرية الصحافة » هى موضوع ذلك الحوار . « جلال الدين الحمامصى » — على يمين الصفحة — يرى : انه على الرغم من هذه الجرعة الهائلة من الحرية التى اصبحت صحافتنا : قومية .. ومعارضة .. تتمتع بها فى عهد « مبارك » ، الا ان الحاجة لم تزل ملحة الى « صحيفة مستقلة » .. لا تنتمى الى الحكومة ولا الى المعارضة . وانما تنتمى الى « كل مصر » ولا يسيطر عليها الا ضمير كتابها ومحرريها . وهى « صورة » اقرب ماتكون الى صورة جريدة « الاهرام » قبل تأميمها فى سنة ١٩٦٠ .

ولا يختلف « عبد المنعم مراد » — على يسار الصفحة — من حيث المبدأ مع يمينها . الا انه يرى ان « القدر العظيم » من الحرية الذى تتمتع به صحافتنا القومية هذه الايام ، يمكن ان يجعل من امنية « الصحيفة المستقلة » عن هؤلاء .. واولئك .. « امنية مؤجلة » الى ظروف افضل . لكن « يمين الصفحة » لايوافق « يسارها » على رأيه .. ويزداد تمسكا بامنيته .. وبأن كل الظروف التى

يمر بها وطننا فى الوقت الحاضر ، ليست ضد تحقيق هذه الامنية .. بل لعل هذه الظروف نفسها ان تكون موجبة لوجود هذه « الصحيفة » التى يتطلع اليها « الحمامصى » مستقلة عن الجميع .. وملكا ، فى ذات الوقت للجميع .. لمصر كلها .

وانا مع « جلال الدين الحمامصى » ــ على طول الخط ــ فى « امنيته » التى اعترف بانها نفس امنيتى التى طالما راودتنى ، وطالما حدثت بها نفسى . وليس من شأن هذه « الامنية » ان تنفى عن صحافتنا : قومية .. ومعارضة . ذلك القدر العظيم من الحرية الذى أصبحت تتمتع به فى عهد « مبارك » .. والذى لم يسبق لها ــ والحق احق بأن يذكر ويسجل ــ ان تنسمت ذرة منه فى عهد الرئيسين الراحلين : عبد الناصر .. والسادات .

●● ففى عهد « عبد الناصر » . كان مفهوم « حرية الصحافة » عنده . يعنى : « حرية صحيكة واحدة » .. هى « الاهرام » . و « حرية صحفى واحدة » .. هو : « محمد حسنين هيكل » . وفيما عدا هذا « الصحفى » .. وهذه « الصحيفة » .. لم تكن هناك حرية لصحفى .. ولا لصحيفة . وكانت هذه ــ ولا سبيل هنا لمغالطة النفس .. ولا لمغالطة الآخرين ــ واحدة من اكبر اخطاء « عبد الناصر » .. اذ ترتب عليها ــ طبقا « لقانون السببية » ــ ان أصيبت كل الصحف الاخرى بداء « الكساح » . فلم تعد تستطيع ان تجرى . ولم تعد تستطيع أن تمشى . ولم تعد تستطيع الا ان تنكفىء على نفسها : تنظر .. وتعجب ــ ويذبحها من الاعماق الحزن

على حالها .. وكانت النتيجة النهائيـــة ان فقـــــدت « الصحافة المصرية » دورها الرائد .. والمؤثر .. والفعال في المنطقة العربية بأسرها ، وهـــو الدور الذى ظلت صحافتنا محتفظة به لنفسـها.. منذ ان كانت فى «مصر» صحافة .. والى أن وقعت واقعة « التأميم » التى دخلت بها صحافتنا كلها ــ فيما عدا « الاهرام » طبعا ــ دائرة التنفس بالامر .. والتكلم بالامر .. والتلفت نحو اليسار او نحو اليمين .. بالامر !! . وكانت هذه فرصة لصحافة لبنان ــ ليس كمثلها فرصة ــ لكى تسحب « السجادة » بالكامل من تحت أقدام « الصحافة المصرية العريقة » .. ولكى تحتل ــ بمفردها ــ الساحة العربية كلها .. تنطلق فيها متحررة من كل قيد .. ومن كل شرط . ومن ثم ــ راحت تزدهر ــ وتتفوق ــ وتتقدم ــ بعد اذ خلت لهـا الساحة تماما من صحافة كانت ناجحة ــ وقوية ــ وقادرة فى كل وقت ، على أن تسد فى وجهها على كل منـافذ الطريق .

●● ثم جاء « السادات » ..

جاء ليعطى الصحافة قدرا من الحرية . لكنها ــوالحق هنا أيضا أحق بأن يذكر ويسجل ــ كانت « حرية نهش عبد الناصر » .. ونهش عصره .. ونهش انجازاته ــ كل انجازاته ــ ف « اشتراكيته » ، على سبيل المثال ، لم تكن سوى « خطة ماكرة » ابتدعها الرجل ابتداعا لكى يصل من ورائها الى هدف حدده مسبقا .. وهو : « افقار الاغنياء .. وزيادة الفقراء فقراً » !!

و « سده العالى » لم يكن هو الآخر سوى « مشروع

خبيث » .. الغاية الوحيدة منه هي : « تخريب الارض الزراعية » .. وتعقيم خصوبتها » .. !! اما « ضـرب دولة الاحتكارات الاجنبية التى كانت متسلطة على جميع مقدراتنا » .. فقد كان عملا لم ينطلق من اى منطلق وطني .. او ثورى .. وانما انطلق من منطلق الحقد .. والحقد وحده .. وان الرجل لم يضرب ضربته هذه الا بهدف ان يشعر الجميع بأنهم « يأكلون خبزهم » من بين أصابعه .. ولا شيء غير ذلك !!.

وهكذا .. وهكذا .. ألى آخر هذه النوعيـــة مـــن « المقولات » التى يشهد كل منصف بأنه لم يكن هناك أى قيد .. من اى نوع . لا على قولها ، ولا على تكرارها ، ولا على التهويل فيها .. وتجسيدها .. لعلهـــا تسهم فى « دفن » الرجل ، وفى طى صورته ــ وسيرته . ومسيرته فيذهب من عيون الجماهير . ومن قلوبها . وعقولها . وكانه لم يكن .. !!

لكن شيئا من ذلك الذى أريد بالرجل لم يحدث . وبقى على النكران . وعصيا كذلك على كل أولئك الذين استنفدوا « عبد الناصر » حيا .. عصيا على النسيان . وعصـــيا كل قواهم ، وكل جهودهم فى محاولات فاشلة .. هدفها طمس صورته .. وطى سيرته . ومسيرته !!.

وفيما عدا « حرية نهش عبد الناصر » ، ونهش عصره ونهش انجازاته كلها .. فان « القيــد الساداتى » على « الصحافة » كان حديديا . وكان قويا . وكان مفروضا على كل كلمة .. وعلى كل همسة . ومازلنا جميعا نذكر كيف ان صحفيا عملاقا مثل « مصطفى أمين » لم يتردد

« السادات » لحظة فى أن يصدر اليه أمرا بالتوقف عن الكتابة .. لانه انتقد فى « فكرة » مسلك أعضاء « حزب مصر » الذين تخلوا عن حزبهم .. و « هرولوا » مسارعين الى الانضمام « للحزب الوطنى .. لمجرد ان « السادات » هو الذى انشأه . مع ان « السادات » لم يكن بعيــــدا ، بأية صورة من الصور ، عن انشاء « حزب مصر » .. وان قد تخلى عن رئاسته لرئيس وزرائه .. الســـيد ممدوح سالم .

اما « صحافة المعارضة » .. فكلنا يعرف كم كـــان « السادات » دائم الضيق بها .. شديد السخط عليها . فصادرها اكثر من مرة . واوقفها أكثر من مرة . وعندما وصل به ضيقه بها ، وسخطه عليها الى ذروته .. يتردد فى ان يسلط عليها « مخالب ديموقراطيته ... وانيابها ففرمتها فرما » على حد ذلك « التعبير الخاص » الذى كان مفضلا عنده .. واثيرا لديه !!..

●● ثم جاء حسنى مبارك ..

جاء مستفيدا فى هذا المضمار ، وآلى ابعــد حدود الاستفادة ، من تلكما التجربتين السابقتين عليـــه .. ومستوعبا تماما لكل ابعادهما .. ومن ثم ، لم يختص برضائه صحيفة بذاتها .. ولا صحفيا بعينه .. كما لم يختص صحيفة اخرى ، ولا صـــحفيا آخر بسخطه أو بغضبه .. وانما جعل الصحفيين كلهم والصحف كلهـا سواء لديه . لا فضل لاحدهم على الاخر الا بعمله .. والا بجهده .. والا بعطائه الصادق لصحيفته . ولبلده . من خلال صحيفته . ومن هنا انطلقت « الصحف القومية »

التى كان « السادات » حريصا على انتهاز كل فرصة لكى يلومها . ويعنفها . ويصارح أهلها بغضبه منهم وعليهم .

أقول : انطلقت « الصحف القومية » فى عهد مبارك ، تمارس حريتها كاملة ، وتمارس دورها كاملا . وتمارس « نقدها المر » لأمور كثيرة .. ولأناس كثيرين .. فى أعلى مستويات المسئولية . وهى ممارسة أحسب ان «الصحف القومية » كانت قد نسيتها ، تماما منذ ان دخلت «حظيرة التأميم » فى سنة ١٩٦٠ ، والى ان وقعت واقعة «المنصة» التى جاء « مبارك » ، فى أعقابها ، الى الحكم .. عاقدا العزم على أن يعطى صحافتنا كلها : قومية .. ومعارضة « كل الحرية » التى تعينها على استرداد مكانها .. فى أقصر وقت ، وبأقوى ماتستطيع ..

ولم تكن « صحافة المعارضة » اكثر ترفقا ب « حسنى مبارك » منها ب « السادات » . فلم تقل فيه . وفى منهاجه ، وفى اسلوب حكمه .. شيئا اقل مما كانت تقوله فى « السادات » وفى منهاجه ، وفى أسلوب حكمه .. بل لعل الصحيح أن « صحافة المعارضة » — اعتمادا على مناخ الحرية .. والتسامح .. الذى نشره « مبارك» من حوله — انطلقت تقول فيه ، وفى منهاجه ، وفى أسلوب حكمه .. مالم تقل شيئا منه فى « السادات » .. على الرغم من ذلك البون الشاسع الذى يباعد بين الرجلين . والاسلوبين والمنهاجين فى الحكم . وفى الحياة ..!! بل لقد عمدت بعض هذه الصحف — كنوع من اصطناع الجراة والشجاعة .. أو استعراض القوة والعضلات —

أن تتجاوزه ، عند مُخاطبتها لـ « رمز الدولة .. ورئيس كل المصريين » ...

وربما يكون الرجل قد ضاق صدرا بهذا التجاوز .. وربما يكون قد عبر — صراحة — عن هـذا الضيق فى مناسبة .. أو مناسبتين .. ولكنه ، مع ذلك ، ظـل شديد الحرص على الامعان فى التمسك بالحـــرية .. واستبقاء الامر فى « دائرة العتاب » من الكبير للصغير ، ولم يخرج به — مرة واحدة — الى دائرة التوقيف . او المحاكمة .. أو المصادرة . او التهديد بـ « المفرمة » .. او بـ « المخالب والانياب » .

أن الصحافة ، بغير حرية حقيقية . وصادقة . وكاملة ، لن تخرج — فى أحسن صورها — عن كونهـا مجـــرد « كمية من الورق » .. مسكوب عليها قدر من « الحبر الاخرس » الذى لا يقول شيئا . ولا يجرؤ . ولا يستطيع .

ومن هنا ، تبرز « القيمة الحقيقية » لهذه الجرعة الهائلة من الحرية التى هيأها « مبارك » لكل صحافتنا : قومية .. ومعارضة . فدفعت « ماء الحياة » الى شجرتها التى كانت قد اصفرت اوراقها .. وتيبست أغصانها .. وتهيأت هى نفسها للموت عطشا ، أو للموت اختناقا .. بعد ان قضت ثمانية وعشرين عاما لا تتنفس .. ولا ترتوى !!

ومن هنا ، أيضا ، تبرز « القيمة الحقيقية » لامنية « جلال الدين الحمامصى » بأن تكون لدينا — الى جانب صحفنا التى بدأ « ماء الحياة » يتدفق الى عروقها — « صحيفة مستقلة » .. مستقلة تماما عن الحكومة ، ومستقلة تماما عن المعارضة ، ومستقلة تماما عن كل تيار ظاهر او خفى .. سياسى كان أو دينى ..

اننى آكاد اثق بأنه فى اليوم الذى تتحقق لنا فيه مثل هذه « الامنية » .. فان الارض سوف تنشق عن « جيش جديد » من المفكرين والكتاب الذين يحرصون على الابتعاد بأنفسهم عن أن « يصنفوا » بأنهم مع الحكومة .. وضد المعارضة . او بأنهم مع هذه .. وضد تلك . وهذا . فى حد ذاته ، كسب هائل . كسب يساوى أن تبقى « الامنية » على قيد الحياة .. الى اللحظة التى سوف تراها فيها الجماهير « حقيقة واقعة » ..

وانى واثق من انها سوف تراها . وسوف تفرح بها . وسوف تدق لها الطبول .. كما لم تدقها لصحيفة سواها .

الرفاق حائرون .. يتساءلون

يتهامسون؟!

ــ ان من يقرأ لكَ دفاعكَ عن « عبد الناصر » ، دون ان يكون لديه علم بما اصابك على يديه ــ شخصيا ــ فى رزقك ، وفى مسيرتكَ .. يتصور ، على الفور ، انك لابد وأن تكون واحدا من أولئك الذين كانوا ، على أيامه ، غارقين فى « النعيم » الى آذانهم ــ بينما انا اعرف : كم قاسيت .. وكم عانيت .. على مدى اكثر من عشرين سنة ، صودرَ فيها قلمكَ .. وأوقفت فيها مسيـــيرتكَ بقرار شخصى منه ، فهل استطيع ان اجد عندك تفسيرا لهذا الذى يحيرنى فى أمرك ؟

هذا ماقالته لى سيدة فاضلة تعرف عنى الكثير . وتتابع كلّ ما اكتبه .

وهذه السيدة الفاضلة . ليست هى ــ الوحيدة ــ التى حيرها ، كما تقول ، أمرى . ولا هى ــ الوحيدة ــ التى يحيرها دفاعى عن « عبد الناصر » . كثيرون غيرها ممن يعرفون ماذا اصابنى على يديه ، وحجم ذلكَ الذى اصابنى .. تتملكهم نفس الحيرة ، وتستبدّ بهـــم نفس التســاؤلات . فلقد قال لى صديق عزيز قرأ ما جــاء فى « أسبوعيات » العدد الاسبق عن « عبد الناصر » ..

ــ فى فقرة من فقرات « أسبوعياتكَ » فى « آخــر ساعة » وجدتكَ تنسب الى « عبد الناصر » ــ وبصراحة مطلقة ــ « مسئوليته المباشرة » عما أصاب صحافتنا من

« كساح » نتيجة لقيامه بـ « يحبس » الحرية الصحفية عن كل الصحف ، وعن كل الصحفيين .. لحساب صحفى واحد ، وصحيفة واحدة ، ثم وجدتك فى « فقرة اخرى» تلت هذه مباشرة ، تدافع عنه « دفاعا مجيدا » فى مواجهة أولئك الذين يلذ لهم — على حد تعبيرك — ان ينهشوا شخصه ، وعصره ، وانجازاته جميعا — الا ترى معى ان فى هذا شيئا من « التناقض » ، ربما يحتاج منك الى ان تجلوه لى .. ولغيرى ايضا ؟

ولهذه السيدة الفاضلة .. ولهذا الصديق العزيز .. وايضا لكل « الرفاق » الذين يرون فى موقفى من « عبد الناصر » — بعد كل ما اصابنى منه — « لغزا » يحتاج منى لان اجلوه لهم بما يضع حدا لحيرتهم من امرى .. لكل هؤلاء اقول :

اننى لا ارى فى « موقفى » من « عبد الناصر » لغزا .. ولا شبه لغز .. اذ ان الامر عندى — وببساطة شديدة — هو اننى تعودت ان انظر الى « الرجل » بكلتا عينى . وايضا من كل الزوايا . واصمم — انصافا لنفسى .. قبل ان يكون ذلك انصافا له ، ولا انحيازا ولا انبهارا — ان لا انظر اليه ، ابدا ، بعين واحدة .. ولا من زاوية واحدة .. ولاننى انظر الى « عبد الناصر » ، كما قلت ، بكلتا عينى .. ومن كل الزوايا .. فلقد كانت النتيجة الحتمية ، والطبيعية ، لذلك . هى ان صارت لى القدرة على أن ارى « أمجاده العظيمة » بعين .. فى ذات الوقت الذى صارت لى فيه القدرة على ان ارى ، بعينى الثانية ، اخطاءه التى كانت « عظيمة » هى الاخرى .. والتى كان من بينها — وربما فى مقدمتها — ذلك « الكساح » الذى أصاب به

صحافتنا كلها ، وصحفيينا كلهم .. لحساب صحيفة واحدة ، وصحفي واحد !!

وفي يقيني أنه ليس مما ينتقص « مثقال ذرة » من قدر « عبد الناصر » .. ولا من دوره .. ولا من أثره العظيم والخطير في مسار الامة العربية جميعها ، ان تكون له « أخطاء » . فذلك « شيء بشرى » وارد — بالضرورة — عليه .. باعتباره « بشرا زعيما » .. وليس .. « ملاكا مجنحا » ، ولا « نبيا معصوما » !!

واذا كان « عبد الناصر » قد جنح ، في وقت ما .. وتحت ظروف ما ، الى أن يتعامل مع خصومه الشخصيين وأيضا مع خصوم فكره ، وخصوم ثورته ، بقدر من « القسوة » ، أو من « العنف » قليل او كثير ، فليس ينبغي لنا ان ننسى .. ولا ان نتناسى .. ان هؤلاء الخصوم أنفسهم هم الذين فرضوا عليه — فرضا — ذلك القدر القليل او الكثير من « القسوة » .. ومن « العنف » الذى أضطر الى معاملتهم به . والا .. فليعانى الذين يحلو لهم أن ينهشوا لحم « عبد الناصر » — حيا .. وميتا — على « ثورة واحدة » .. واحدة فقط — على مدار التاريخ كله — هيأ لها خصومها المدافع ، والقنابل ، والمتفجرات التي يهاجموها بها ، ولكي ينسفوا بها الأرض من تحت أقدامها .. فما كان منها الا ان « ربتت بيدها الحانية » على خدود هؤلاء الخصوم .. ثم رمتهم بالورود والرياحين بدلا من مواجهة رصاصهم برصاصها .. وعنفهم بعنف اقسى واشد !!!

ان شيئا مثل هذا لم يحدث على مدار التاريخ ، في اى بلد في العالم قامت فيه « ثورة » تريد ان تهدم «القديم»

لكى تقيم « جديدا » على انقاضه . لم يحدث هـذا فى فرنسا ، ولا فى روسيا ، ولا فى الصين ، ولا حتى فى اليمن !!

ثم ... لماذا نذهب بعيدا هكذا ..؟!

لماذا نذهب الى فرنسا ، والى روسيا ، والى الصين ، والى اليمن . وعندنا « الامثلة » قريبة جدا منا فى انفسنا — وعلى ارضنا — لكننا — للأسف الشديد — ننسى .. أو لعلنا نحب أن ننسى .. ولعل الذين يحبون ان ينسوا ربما اكثر من غيرهم . هم اولئك السادة من كتاب التاريخ الذين يتوفرون على كتـابة « تاريـخ ثورة يوليـو » .. و « تاريخ عبد الناصر » !!

●● عندنا « اسماعيل صدقى » .. و « محمد محمود » — بل و « مصطفى النحاس » نفسه — ولم يكن اى منهم — ولا هم جميعا — « ثورة » .. ولا « شبه ثورة » .. جاءت وفى نيتها ان « تقلب الأرض » وتحدث فى «تركيبة المجتمع » تغييرا حقيقيا يمتد الى الاعماق .. والى الجذور ومع ذلك ، فلقد كان لكل منهم على حدة .. كما كان لهم مجتمعين .. « مواقف » تميزت بالعنف .. وبالقسوة . مع خصومهم الشخصيين ، وايضا مع خصوم افـكارهم وتوجهاتهم .. فحكم « محمد محمود » فى سنة ١٩٢٨ بالحديد وبالنار .. وعطل الدستور ، وتعقب الصحف الوطنية ، وزج بخصومه السياسيين فى غياهب السجون واختار مكانه .. وبلا اى مدآراة أو خجل — بين مكانه .. وبلا أى مدارأة او خجل — بين « أعداء الشـعب » الحقيقيين .. والسافرين : « الانجليز » .. و «الملك»!!

وما فعلة « محمد محمود » بالشعب في سنة ١٩٢٨ ، جاء « اسماعيل صدقي » في سنة ١٩٣٠ ، فكرره بنفس حروفه .. ولكن .. بوقاحة اكبر ، وبعنف اكثر !! ولم يستطع « مصطفى النحاس » في سنة ١٩٤٢ أن يتجنب « القسوة » .. ولا ان يتجنب « العنف » في تعامله مع خصومه السياسيين الذين رأى من وجهة نظره أنهم يزرعون الارض — من تحته — بالالغام .. وبالمتاعب .. فزج في المعتقل بصديق عمره .. ورفيق نضاله الوطني وكفاحه .. « مكرم عبيد باشا » !! كما أعتقل « على ماهر باشا » .. وكذلك اعتقل من رجال القوات المسلحة « آلاميرالاى » احمد فؤاد صادق و « اليوزباشى » أنور السادات وقائد الاسراب حسن عزت . والصحفيين : جلال الدين الحمامصي .. وموسى صبري .. وكثيرين غيرهم من العناصر الوطنية الذين لا تحضرني الآن أسماؤهم .. والذين كان أشد مايؤسف له في أمر أعتقال اكثرهم انه تم — بناء على طلب شخصي .. ومباشر — من «سلطات الاحتلال البريطاني » !!

وما فعله ، في سنة ١٩٤٢ « زعيم الاغلبية الشعبية الساحقة » — كرره في سنة ١٩٤٩ رئيس الوزراء ... والحاكم العسكرى العام .. « ابراهيم عبد الهادى » .. ولكن بدرجة من العنف ، لعلها كانت أفظع وابشع .. ولعل خصومه السياسيين أن يكونوا هم المسئولين عن هذا « الاسلوب » الافظع .. والابشع الذي عاملهم به .. ولعله هو لم تكن لديه فرصة للاختيار .

ثم جاءت « ثورة يوليو » فحاكمت « ابراهيم عبدالهادى » وحكمت عليه محكمتها بالأعدام شنقا .. ثم خفف « مجلس

قيادة الثورة » الحكم الى « الاشغال الشاقة المؤبدة » لقاء مافعله بهؤلاء الخصوم ، ثم مالبث هؤلاء الخصوم انفسهم ان أوقعوا الثورة معهم فى نفس المأزق الذى سبق لهم ان أوقعوا فيه « الرجل » الذى حاكمته الثورة وحكمت عليه بالاعدام بسببهم .. ومن أجلهم !! ومن ثم ، كان « امرا مقضيا » ان تعاملهم الثورة .. وان يعاملهم « عبد الناصر » بأسلوب لعله كان اشد قسوة . ذلك لان الخطر نفسه كان قد صار اشد هولا . ولان المعركة بين الطرفين كانت قد اسفرت عن وجهها تماما ، ومضت تلخص نفسها فى كلمتين اثنتين هما : من الذى يسبق، فيقضى على الاخر؟

ومن المؤكد أنه لم يكن هناك بديل .. ومن يقول ، بغير هذا ، انما يكذب كذبتين : كذبة على نفسه .. وكذبة أخرى على التاريخ !!

ولا جدال فى ان من حق الذين أصابهم « عبد الناصر » — شخصيا — او اصابتهم ثورته .. وقراراتهـــا .. وتوجهاتها .. بجرح أو بجراح — لا جدال فى ان من حقهم جميعا أن يتوجعوا .. ومن حقهم جميعا أن يتألموا . فذلك حق مشروع لهم لا يملك أحد ان يستنكره منهم ، ولا ان ينكره عليهم . ولكن .. أن تتحول القضـــية الى مرارة متواصلة .. والى « حقد اسود .. مستعر او مستقر » وآلى « حواديت وقصص وحكايات » قليلهـــا صحيح ، وموجع ، واليم .. وكثيرها « من نسج الخيال» اصطناعا لبطولة لم تحدث ، أو ابتداعا لبسالة لم يكن لها وجود .. فذلك — بالتأكيد — هو مانستنكره منهم .. ونأباه عليهم . لماذا ؟ لانه ، من ناحية ، « متاجرة بالالام »

حيث لا يصح لانسان يحترم نفسه .. ويحترم كرامته .. أن يتاجر بأحزانه ولا بآلامه .. ولانه ، من ناحية اخرى ، لن يكون له من نتيجة عملية غير « الخصم من رصيدهم » لدى الذين يتابعون ـ ان كان هناك من يتابعون ـ حكاياتهم وحواديتهم .. ألتى تجافى العقل ، وتخاصم المنطق ، وتفتقر حتى الى عنصر التشويق الذى لا تخلو منه ـ عادة حواديت الصغار !!

ان كلمة الحق ـ أيا ماكان اتجاه الريح التى تحملها ـ انما تستمد قيمتها ، وقامتها ، وقوتها .. من قدرتنا على أن نقولها فى حق خصومنا ، قبل اصدقائنا ، واحسبنى فى كل ماقلته عن « عبد الناصر » وايضـا فى كـل ماسوف اقوله عنه ، لم افعل .. ولن افعل .. اكثر من اننى احاول ان أقول فيه « كلمة حق » مبرأة مـن الحقد ومن المرارة .. ومنزهة عن الانحياز وعن الانبهـار والهوى .. ومعتمدة اساسا ـ وبالدرجة الاولى ـ على تصميم راسخ من جانبى على ان انظر أليه بكلتا عينى .. ومن كل الزوايا .. وليس بعين واحدة فقط .. ولا من زاوية واحدة فحسب .

هذه ـ ببساطة شديدة ـ هى كل ابعاد موقفى من عبد الناصر .. ولعلها ان تكون مقنعة لكل أولئك الذين قالوا .. ويقولون . انهم لا يستطيعون أن يفهموا موقفى ، أو ان امرى يحيرهم !!

رقم الايداع ٤٤٣٢ ـ ١٩٨٧

الترقيم الدولى : ٧ ـ ٣٠٨ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ
الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

اسعار البيع للعدد العادى فئة ٧٥ قرشا :

سوريا ١٨٠٠ ق . س لبنان ٣٠ ليرة الاردن ٥٠٠ فلس الكويت ٤٠٠ فلس العراق ١٦٠٠ فلس السعودية ٧ ريالات السودان ٢٥٠ ق . سودانيا البحرين ٨٠٠ فلس الدوحه ٨ ريالات دبى ٨ دراهم ابو ظبى ٨ دراهم مسقط ٨٠٠ بيسه تونس ١٦٠٠ مليم المغرب ١٥٠٠ فرنك غزة والضفة ٧٥ سنتا اليمن الشمالية ١٣ ريالا عدن ١٤٤ سنتا الصومال ١٣٠ بنى لاجوس ١٢٠ بنى داكار ١٠٠٠ فرنك لندن ١٥٠ سنتا اثينا ٢٠٠ دراخمة كندا ٥٠٠ سنت البرازيل ٦٠٠ سنت استراليا ٦٠٠ سنت ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة

آجمل



هــذا الكتاب

هذه كلمات مصرية ، من قلب مصرى اصيل ، ومن نبض انتمائه الى هذه الارض الطيبة .

وهو قد كتب كلماته فى حب مصر ، فى الوقت الذى كان عليه ان يغيب عن احضان حبيبته كارها ، أو بالأصح مكرها ، ومع ذلك فانه لم يفقد حبه لحظة ولم يفقد ايمانه دقيقة ، ولم يفقد جذوره طرفة عين .

وهذه الكلمات المصرية مضى عليها حين من الدهر . ورغم ذلك فكأنها مكتوبة اليوم ، بل كأنها مكتوبة من اجل الغد ، فالذى يعيش وطنه فى ضميره ، وفى كيانه ، وفى قلبه وفى كل مشاعره لابد ان يرى ماوراء الحجب ، ويستشف ماخلف الاستار ، ويقرأ كتاب الغد برؤيته الثاقبة ، ووعيه المتفتح ، وايمانه المتصل ، ويقينه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ان كلمات مصرية هى عنوان صادق لكلمات الكاتب الكبير الاستاذ حلمى سلام . ففيها حياة مصر . وفيها نبض مصر . وفيها مستقبل مصر .

وهى كلمات كتبها فى « الفجر » ولكنها مثل الاذان صالحة لكل وقت ، ولكل صلاة فى حب مصر . ولقد دفع الكاتب ثمنا غاليا لهذه الكلمات ، حيث كان عليه ان يغادر قلمه وأوراقه وان يختفى صوته وراء حاجز من الصمت الرهيب وقد قبل حلمى سلام ان يدفع ثمن حبه لمصر

وذهب الذين تآمروا على قلم حلمى سلام . وبقيت كلماته المصرية معبرة واصيلة وخالدة .. وهذه هى سطوره التى كانت سببا فى ان يعانق الصمت جبرا وهو اقسى مايمكن ان يتعرض له قلم حر وشريف .

مؤسسة الهلال

قرشا